

قاعدة جليلة

في التوسل والوسيلة

﴿ تأليف ﴾

« الامام شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية »

رضي الله عنه وارضاه

﴿ نقل من الكواكب الدراري ﴾

ترتيب الشيخ بن عروة الدمشقي

(عدد ٣٤ من المكتبة العمومية بدمشق الشام)

صحح أصله وعلق عليه بعض الهوامش

﴿ السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار ﴾

طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة ١٣٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً، أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعياً الى الله باذنه وسراجا منيرا، فهدى به من الضلالة، وبصر به من العمى وأرشد به من الغي، وفتح به أعينا عمياء وآذانا صما وقلوبا غلفا، فبلغ الرسالة وادى الامانة ونصح الامة وجاهد في الله حق جهاده وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما، ففرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار، وبين أوليائه وأعدائه، فالحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله. وقد أرسله الله الى الثقلين الجن والانس فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه في باطنه وظاهره. والايمان به ومتابعته هو سبيل الله وهو دين الله وهو عبادة الله وهو طاعة الله وهو طريق أولياء الله وهو الوسيلة التي أمر الله بها عباده في قوله تعالى (يا أيها الذين

آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) فابتغاء الوسيلة الى الله انما تكون لمن توسل الى الله بالايمان بمحمد واتباعه

وهذا التوسل بالايمان به وطاعته فرض على كل أحد في كل حال باطنا وظاهرا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته في مشهده ومغيبه لا يسقط التوسل بالايمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الاحوال بعد قيام الحجة عليه ولا بعذر من الاعذار. ولا طريق الى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه الا التوسل بالايمان به وبطاعته وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الاولون والآخرون فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلام جاها عند الله وقد قال تعالى عن موسى (وكان عندالله وجيها) وقال عن المسيح (وجيها في الدنيا والآخرة) ومحمد صلى الله عليه وسلم أعظم جاها من جميع الانبياء والمرسلين لكن شفاعته ودعاؤه انما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له فمن دعاله الرسول وشفع له توسل الى الله بشفاعته ودعائه كما كان أصحابه يتوسلون الى الله بدعائه وشفاعته وكما يتوسل الناس يوم القيمة الى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما

ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى. والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الايمان به واما بدون الايمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة ولهذا نهي عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ونهي عن الاستغفار للمنافقين وقيل له (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) ولكن الكفار يتفاضلون في

الكفر كما يتفاضل أهل الايمان في الايمان قال تعالى (انما النسيء زيادة في الكفر) فاذا كان في الكفار من خف كفره بسبب نصره ومعونته فانه تنفعه شفاعته في تخفيف العذاب عنه لا في اسقاط العذاب بالكلية كما في صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب انه قال قلت يا رسول الله فهل نفعت أبا طالب بشيء فانه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال « نعم هو في ضحضاح من نار ولولا انا لكان في الدرك الاسفل من النار » وفي لفظ ان أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك؟ قال « نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح » وفيه عن أبي سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيمة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منهما دماغه» وقال «ان أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه» وكذلك ينفع دعاؤه لهم بان لا يعجل عليهم العذاب في الدنيا كما كان صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الانبياء ضربه قومه وهو يقول اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون وروي انه دعا بذلك ان[1] اغفر لهم فلا تعجل عليهم العذاب في الدنيا قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى) وايضا فقد يدعو لبعض الكفار بان يهديه الله أو يرزقه فيهديه أو يرزقه كما دعا لأم

---

(١) لعلها «أي» التفسيرية ولعل في هذا السياق تحريفا من النساخ وفي البخاري وغيره ان النبي (ص) دعا بهذا الدعاء يوم أحد وقد شجه المشركون وكسروا رباعية . وفسر العلماء دعاءه بالمغفرة لهم بنحو من هذه العبارة قالوا لأنه لو أراد بالمغفرة ما يتعلق بالآخرة لآمنوا . وقد يقال ان الدعاء استجيب في المجموع

أبي هريرة حتى هداها الله وكما دعا لدوس فقال «اللهم اهد دوسا وأْتِ بهم» فهداهم الله وكما روى أبو داود انه استسقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقي لهم فاستسقى لهم وكان ذلك احسانا منه اليهم يتألف قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك

وقد اتفق المسلمون على انه صلى الله عليه وسلم اعظم الخلق جاها عند الله لا جاه لمخلوق عند الله اعظم من جاهه ولا شفاعة اعظم من شفاعته لكن دعاء الانبيا وشفاعتهم ليس بمنزلة الايمان بهم وطاعتهم فان الايمان بهم وطاعتهم توجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقا وعاماً فكل من مات مؤمنا بالله ورسوله مطيعا لله ورسوله كان من اهل السعادة قطعا ومن مات كافراً بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعا

واما الشفاعة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع فالشفاعه للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ولو كان الشفيع اعظم الشفعاء جاها فلا شفيع اعظم من محمد صلى الله عليه وسلم ثم الخليل ابرهيم وقد دعا الخليل ابراهيم لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وقد كان صلى الله عليه وسلم اراد أن يستغفر لابي طالب اقتداء بابراهيم وأراد بعض المسلمين ان يستغفر لبعض اقاربه فانزل الله تعالى (ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم) ثم ذكر الله عذر ابراهيم فقال (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الاعن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأوّاه حليم * وما كان الله ليضل قوما

بعد اذ هداهم حتى تبين لهم ما يتقون) وثبت في صحيح البخاري عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يلقى ابراهيم اباه آزر يوم القيمة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له ابراهيم الم اقل لك لا تعصني فيقول له ابوه فاليوم لا اعصيك فيقول ابراهيم « يارب انت وعدتني ان لا تخزيني يوم يبعثون واي خزي اخزى من ابي الابعد» فيقول الله عز وجل «اني حرمت الجنة على الكافرين» ثم يقال انظر ما تحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ[1] متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» فهذا لما مات مشركا لم ينفعه استغفار ابراهيم مع عظم جاهه وقدره وقد قال تعالى للمؤمنين (قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما املك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك انت العزيز الحكيم) فقد أمر تعالى المؤمنين بان يتأسوا بابراهيم ومن اتبعه الا في قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك فان الله لا يغفر ان يشرك به

وكذلك سيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم ففي صحيح مسلم عن ابي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته ان ازور قبرها فاذن لي » وفي رواية ان النبي صلى الله عليه وسلم زار قبر أمه فبكى وابكى من حوله ثم قال «استأذنت ربي ان أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته في ان ازور قبرها فاذن لي فزوروا القبور

(١) في حاشية الاصل : الذيخ ذكر الضباع

فانها تذكر الموت» وثبت عن انس في الصحيح ان رجلا قال يا رسول الله اين ابي قال «في النار» فلما قفا دعاه فقال «ان أبي وأباك في النار» وثبت ايضا في الصحيح عن ابي هريرة لما أنزلت هذه الآية (وانذر عشيرتك الاقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعم وخص فقال «يابني كعب ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يابني مرة بن كعب انقذوا أنفسكم من النار يابني عبد شمس انقذوا انفسكم من النار يابني عبد مناف انقذوا انفسكم من النار يابني عبد المطلب انقذوا انفسكم من النار يا فاطمة انقذي نفسك من النار فاني لا املك لكم من الله شيئا غير ان لكم رحما سأبلها ببلالها» وفي رواية عنه «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله فاني لا اغني عنكم من الله شيئا يا بني عبد المطلب لا اغني عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ياصفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت رسول الله سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا» وعن عائشة لما نزلت (وأنذر عشيرتك الاقربين) قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «يا فاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب يابني عبد المطلب لا املك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم» وعن ابي هريرة قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم امره ثم قال «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين احدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك

لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك » أخرجاه في الصحيحين وزاد مسلم « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله اغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد ابلغتك» وفي البخاري عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال «ولا يأتي احدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها ثغاء فيقول يامحمد فأقول لا املك لك شيئا قد بلغت ولا يأتي احدكم ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول يامحمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت » وقوله هنا صلى الله عليه وسلم لا أملك لك من الله شيئا كقول ابراهيم لابيه « لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء »

وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين وقد قيل ان بعض أهل البدعة ينكرها وأما شفاعته لاهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الاربعة وغيرهم وانكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية وقال هؤلاء من يدخل النار لايخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها وعند هؤلاء ماثم الا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب وأما الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر الائمة كالاربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الاحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان

الله يخرج من النار قوما بعد ان يعذبهم الله ماشاء ان يعذبهم يخرجهم بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ويخرج آخرين بشفاعة غيره ويخرج قوما بلا شفاعة

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) وبقوله (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وبقوله (من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وبقوله (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) وبقوله (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وجواب أهل السنة ان هذا لعله يراد به شيئان احدهما انها لا تنفع المشركين كما قال تعالى في نعتهم (ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى اتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين *) فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين لانهم كانوا كفاراً. والثاني انه يراد بذلك نفي الشفاعة التي أثبتها أهل الشرك[1] ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون ان للخلق عند الله من القدر ان يشفعوا عنده بغير اذنه كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع اليه شفاعة الشافع لحاجته اليه رغبة ورهبة كما يعامل المخلوق بالمعاوضة فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والانبياء والصالحين ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون هؤلاء خواص

(١) هذا الوجه أظهر واختاره الاستاذ الامام وبيناه في التفسير بأحسن مما بينه هنا شيخ الاسلام من جهة تحرير معنى الشفاعة فراجعه في تفسير سورة البقرة

الله فنحن نتوسل الى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا كما يتوسل الى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب الى الملوك من غيرهم فيشفعون عند الملوك بغير اذن الملوك وقد يشفع احدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج الى اجابة شفاعته رغبة ورهبة فانكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) وقال (وكم من ملك في السموات والارض لا تغني شفاعتهم شيئا الا بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال عن الملائكة (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وقال (قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) وقال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (وأنذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) وقال تعالى (الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) وقال تعالى (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وقال تعالى (أم اتخذوا من دون

الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون * واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون) وقال تعالى (وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا * يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وقال صاحب يس (ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة أن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * اني اذاً لفي ضلال مبين * اني آمنت بربكم فاسمعون)

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والانبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا الى الله وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها قال الله تعالى عن قوم نوح (وقالوا لا تذرُنّ آلهتكم ولا تذرن وَدّاً ولا سُواعا * ولا يغوث ويعوق ونَسراً وقد أضلوا كثيرا) قال ابن عباس وغيره هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره وهذه أبطلها النبي صلى الله عليه وسلم وحسم مادتها وسد ذريعتها حتى لعن من اتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد يصلي فيها وان كان المصلي فيها لا يستشفع بهم ونهى عن الصلاة الى القبور وأرسل علي ابن أبي طالب فأمره ان لا يدع قبرا مشرفا الا سوّاه ولا تمثالا الا طمسه ومحاه ولعن

المصورين وعن أبي الهياج الاسدي قال لي علي بن أبي طالب إني لأ بعثك على ما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تدع تمثالا الاّ طمسته ولا قبرا مشرفا الا سوّيته وفي لفظ ولا صورة الا طمستها أخرجه مسلم

فصل

ولفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين أحدهما هو أصل الايمان والاسلام وهو التوسل بالايمان به وبطاعته [1] والثاني دعاؤه وشفاعته وهذا ايضا نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب فان تاب والا قتل مرتدا ولكن التوسل بالايمان به وبطاعته هو أصل الدين وهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام للخاصة والعامة فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة واما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضا كافر لكن هذا اخفى من الاول فمن أنكره عن جهل عُرّف ذلك فان أصر على انكاره فهو مرتد

اما دعاؤه وشفاعته في الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة واما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السنة والجماعة وهم الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ان له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة وانه يشفع فيمن يأذن الله له ان

(١) لم يسبق في الكلام هنا مرجع للضمير وظاهر ان المراد به النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما سبق لظير ذلك فلعل أصل العبارة : ولفظ التوسل بالنبي (ص) الخ

يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر ولا ينتفع بشفاعته الا أهل التوحيد المؤمنون دون اهل الشرك ولو كان المشرك محباله معظما له لم تنقذه شفاعته من النار وانما ينجيه من النار التوحيد والايمان به ولهذا لما كان ابو طالب وغيره يحبونه ولم يقروا بالتوحيد الذي جاء به لم يمكن ان يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة انه قال قلت يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة فقال « أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه » وعنه في صحيح مسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته واني اختبأت دعوتي شفاعة يوم القيامة فهي نائلة ان شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا » وفي السنن عن عوف بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتاني آت من عند ربي فخيرني بين ان يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئا » وفي لفظ قال «ومن لقي الله لا يشرك به شيئا فهو في شفاعتي »

وهذا الأصل وهو التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الاولين والآخرين دينا غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب كما قال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل انه افتتح دعوته بان قال لقومه (اعبدوا

الله ما لكم من اله غيره) وفي المسند عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتي يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار علي من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم »

والمشركون من قريش وغيرهم الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم وأموالهم وسبي حريمهم وأوجب لهم النار كانوا مقرين بان الله وحده خالق السماوات والارض كما قال (ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) وقال (ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) وقال (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون * سيقولون لله قل افلا تذكّرون * قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل افلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنّى تُسْحَرون * بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولَعَلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بان آلهتهم مخلوقة ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم اليه كما قال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص والذين

اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك، الا شريكا هو لك، تملكه وما ملك ، وقال تعالى(ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم فمن يهدي من اضل الله وما لهم من ناصرين * فأقم وجهك للدين حنيفا فطرةَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن اكثر الناس لا يعلمون * منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون *) بين سبحانه بالمثل الذي ضربه لهم انه لا ينبغي ان يجعل مملوكه شريكه فقال : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء يخاف احدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا فاذا كان احدكم لا يرضى ان يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لانفسكم[1] وهذا كما كانوا يقولون له بنات فقال تعالى(ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا جرم ان لهم النار وانهم مفرطون) وقد قال تعالى(واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به أيمسكه على هُون ام يدسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون * للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم)

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك اصلهم صنفان قوم

---

(١) كذا في الاصل وفيه ابهام والمراد فكيف ترضون ان يكون لربكم شركاء من عبيده

نوح وقوم ابراهيم فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم . وقوم ابراهيم كان اصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر وكل من هؤلاء وهؤلاء يعبدن الجن فان الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على اشياء وقد يعتقدون انهم يعبدون الملائكة وان كانوا في الحقيقة انما يعبدون الجن فان الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون* قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون) والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في المحيا ولا الممات ولا يرضون بذلك ولكن الشياطين قد تعينهم وتصور لهم في صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول احدهم انا ابراهيم انا المسيح انا محمد انا الخضر انا ابو بكر انا عمر انا عثمان انا علي انا الشيخ فلان وقد يقول بعضهم عن بعض هذا هو النبي فلان او الشيخ فلان او هذا هو الخضر ويكون اولئك كلهم جنا يشهد بعضهم لبعض والجن كالانس فنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصي وفيهم العابد الجاهل فمنهم من يحب شيخا فيتزيا في صورته ويقول أنا فلان ويكون ذلك في برية ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعاما ويسقيه شرابا أو يدله على الطريق أو يخبره ببعض الامور الواقعة الغائبة [1] فيظن ذلك الرجل ان نفس الشيخ الميت أو الحي فعل ذلك وقد يقول هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته وانما يكون ذلك جنيا

(١) روي في هذا المعنى حكايات في الجاهلية والاسلام بنى المؤلف كلامه هنا على تصديقها وما كل من يحكي من الغرائب صادق

فان الملائكة لا تعين على الشرك والافك والاثم والعدوان وقد قال تعالى (قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا* أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والانبياء كالعزير والمسيح فبين الله تعالى ان الملائكة والانبياء عباد لله كما ان الذين يعبدونهم عباد الله وبين انهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون اليه كما يفعل سائر عباده الصالحين

والمشركون من هؤلاء قد يقولون إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والانبياء أن يشفعوا لنا فاذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه ان يشفع لنا فاذا صورنا تمثاله — والتماثيل اما مجسدة واما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم — قالوا فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا الى الله فيقول أحدهم يا سيدي فلانا أو يا سيدي جرجس أو بطرس أو يا ستي الحنونه[1] مريم أو يا سيدي الخليل أو موسى بن عمران أو غير ذلك استغفر لي الى ربك وقد يخاطبون الميت عند قبره سل لي ربك أو يخاطبون الحي وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضرا حيا وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها يا سيدي فلانا أنا في حسبك أنا في جوارك اشفع لي الى الله سل الله لنا ان ينصرنا على عدونا سل الله ان يكشف عنا هذه الشدة أشكو

(١) كذا وحنون يستوي فيه المذكر والمؤنث ولعل الشيخ قصد به حكاية قولهم فالعوام يقولون امرأة حنونة

اليك كذا وكذا فسل الله ان يكشف هذه الكربة . أو يقول أحدهم سل الله ان يغفر لي . ومنهم من يتأول قوله تعالى (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّابا رحيما) ويقولون اذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة ويخالفون بذلك اجماع الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر المسلمين فان أحدا منهم لم يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ان يشفع له ولا سأله شيئا ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم وانما ذكر ذلك من ذكر من متأخري الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضي الله عنه سيأتي ذكرها وبسط الكلام عليها ان شاء الله تعالى

فهذه الانواع من خطاب الملائكة والانبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم وخطاب تماثيلهم هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى قال الله تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) فان دعاء الملائكة والانبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال – وتماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم – هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولا ولا أنزل به كتابا وليس هو واجبا ولا مستحبا باتفاق المسلمين ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا أمر به امام من أئمة المسلمين وان كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد ويذكرون فيه حكايات ومنامات فهذا كله من الشيطان وفيهم من ينظم القصائد في دعاء الميت والاستشفاع به والاستغاثة

أو يذكرون ذلك في ضمن مديح الانبياء والصالحين فهذا كله ليس بمشروع ولا واجب ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين فان الله لا يعبد الا بما هو واجب او مستحب وكثير من الناس يذكرون في هذه الانواع من الشرك منافع ومصالح ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأي أو الذوق أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك

وجواب هؤلاء من طريقين أحدهما وهو [1] الاحتجاج بالنص والاجماع والثاني القياس والذوق والاعتبار ببيان ما في ذلك من الفساد فان فساد ذلك راجح على ما يظن فيه من المصلحة

اما الاول فيقال قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الاسلام وباجماع سلف الامة وأئمتها ان ذلك ليس بواجب ولا مستحب وعلم انه لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بل ولا احد من الانبياء قبله شرعوا للناس ان يدعوا الملائكة والانبياء والصالحين ويستشفعوا بهم لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم فلا يقول أحد يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله سلوا الله لنا ان ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا وكذلك لا يقول لمن مات من الانبياء والصالحين يا نبي الله يا رسول الله ادع الله لي سل الله لي استغفر الله لي سل الله لي ان يغفر لي أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني ولا يقول أشكو اليك ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي أو أشكو اليك

(١) لعله قد سقط شيء من النساخ هنا ككلمة العمدة أو الاقوى فان الاول أقوى الجوابين والعمدة فيهما والا فلا حاجة الى كلمة « وهو »

فلانا الذي ظلمني، ولا يقول أنا نزيلك أنا ضيفك أنا جارك أو انت تجير من يستجيرك أو انت خير معاذ يستعاذ به، ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور ولا يكتب أحد محضرا انه استجار بفلان ويذهب بالمحضر الى من يعمل بذلك المحضر ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين كما يفعله النصارى في كنائسهم وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الانبياء والصالحين أو في مغيبهم فهذا مما علم بالاضطرار من دين الاسلام وبالنقل المتواتر وباجماع المسلمين ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرع هذا لأمته وكذلك الانبياء قبله لم يشرعوا شيئا من ذلك بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الانبياء نقل بذلك كما ان المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم باحسان ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين لا الائمة الاربعة ولا غيرهم ولا ذكر أحد من الائمة لا في مناسك الحج ولا غيرها انه يستحب لأحد ان يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عند قبره ان يشفع له أو يدعو لأمته أو يشكو اليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين وكان أصحابه يبتلون بأنواع البلاء بعد موته فتارة بالجدب وتارة بنقص الرزق وتارة بالخوف وقوة العدو وتارة بالذنوب والمعاصي ولم يكن أحد منهم يأتي الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الانبياء فيقول نشكو اليك جدب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب ولا يقول سل الله لنا أو لأمتك ان يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين وكل

بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة وهي ضلالة باتفاق المسلمين ومن قال في بعض البدع انها بدعة حسنة فانما ذلك اذا قام دليل شرعي على انها مستحبة فاما ما ليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين انها من الحسنات التي يتقرب بها الى الله ومن تقرب الى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمر إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان وسبيله من سبيل الشيطان كما قال عبد الله بن مسعود [١] خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله)

فهذا اصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله ان يتبعه ولا يخالف السنة المعلومة وسبيل السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان فاتباع [٢] من خالف السنة والاجماع القديم لا سيما وليس معه في بدعته امام من أئمة المسلمين ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين ولا من يعتبر قوله في مسائل

(١) الحديث رواه احمد وعبد بن حميد والبزار والنسائي وغيرهم وصححه الحاكم ولفظه: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال «هذا سبيل الله مستقيما» ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال «وهذه السبل ليس منها سبيل الا عليه شيطان يدعو اليه» ثم قرأ (وان هذا صراطي) الآية. وسواء أورده المصنف بلفظ آخر لم نطلع عليه أو أورده بالمعنى ان النساخ قد حرفوا فيه او اسقطوا منه شيئا

(٢) ليس في لاحق الكلام خبر لهذا المبتدا فالظاهر انه قد اسقطه النساخ وان الاصل هكذا «فاتباع من خالف السنة والاجماع القديم غير جائز لاسيما» الخ او تضع بدل غير جائز كلمة «بدعة»

الاجماع والنزاع فلاينخرم الاجماع بمخالفته ولايتوقف الاجماع على موافقته ولو قدر انه نازع في ذلك عالم مجتهد لكان مخصوصا بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الائمة قبله فكيف اذا المنازع[1] ممن ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعي وانما اتبع من تكلم في الدين بلا علم ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. بل النبي صلى الله عليه وسلم مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجبا ولا مستحبا فانه قد حرم ذلك وحرم ما يفضي اليه كما حرم اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل ان يموت بخمس «ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك» وفي الصحيحين عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل موته «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا قالت عائشة ولولا ذلك لأُبرز قبره ولكن كره ان يتخذ مسجداً

واتخاذ المكان مسجداً هو ان يتخذ للصلوات الخمس وغيرها كما تبنى المساجد لذلك والمكان المتخذ مسجدا انما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين فحرم صلى الله عليه وسلم ان تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد وان كان القاصد لذلك انما يقصد عبادة الله وحده لان ذلك ذريعة الى ان يقصد المسجد لاجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذلك

(١) كذا الاصل ولعل صوابه «والمنازع» أو «فكيف اذا كان المنازع»

ذريعة الى الشرك بالله والفعل اذا كان يفضي الى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه كما نهي عن الصلاة في الاوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي الى الشرك وليس في قصد الصلاة في تلك الاوقات مصلحة راجحة لامكان التطوع في غير ذلك من الاوقات ولهذا تنازع العلماء في ذوات الاسباب فسوغها كثير منهم في هذه الاوقات وهو أظهر قولي العلماء لان النهي اذا كان لسد الذريعة ابيح للمصلحة الراجحة وفعل ذوات الاسباب يحتاج اليه في هذه الاوقات ويفوت اذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها فابيحت لما فيها من المصلحة الراجحة بخلاف مالا سبب له فانه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا يفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة وفيه مفسدة توجب النهي عنه . فاذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الاوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك الى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله اهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها كان معلوما أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه اعظم تحريما من الصلاة التي نهي عنها لئلا يفضي ذلك الى دعاء الكواكب - كذلك لما نهي عن اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد فنهى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك الى دعائهم والسجود لهم كان دعاؤهم والسجود لهم اعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد

ولهذا كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين : زيارة شرعية وزيارة بدعية فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه قال

الله تعالى في المنافقين { ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره }
فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لانهم كفروا بالله ورسوله
وماتوا وهم كافرون فلما نهى عن هذا وهذا لاجل هذه العلة وهي الكفر
دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هذه العلة ودل تخصيصهم بالنهي
على ان غيرهم يصلى عليه ويقام على قبره اذ لو كان هذا غير مشروع في
حق احد لم يخصوا بالنهي ولم يعلل ذلك بكفرهم ولهذا كانت الصلاة
على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة فكان النبي
صلى الله عليه وسلم يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته وكان اذا
دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول «سلوا له التثبيت فانه الآن
يسئل» رواه أبو داود وغيره وقد كان يزور قبور أهل البقيع والشهداء
بأحد ويعلم أصحابه اذا زاروا القبور ان يقول أحدهم «السلام عليكم أهل
الديار من المؤمنين والمسلمين وإنّا ان شاء الله تعالى بكم لاحقون ويرحم
الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم
لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنّا بعدهم» وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي
الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى المقبرة فقال «السلام
عليكم دار قوم مؤمنين وإنا ان شاء الله بكم لاحقون» والاحاديث في ذلك
صحيحة معروفة فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم وهذه
غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم
وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة انه قال أتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وبكى من حوله ثم قال «استأذنت ربي في
ان أستغفر لها فلم يأذن لي فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا

القبور فانها تذكركم الآخرة» فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع الا في حق المؤمنين

واما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها ان يطلب من الميت الحوائج أو يطلب منه الدعاء والشفاعة أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد ان ذلك أجوبُ للدعاء.

فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي صلى الله عليه وسلم ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عند غيره وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك ولو قصد الصلاة عند قبور الانبياء والصالحين من غير ان يقصد دعاؤهم والدعاء عندهم مثل ان يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرما منهياً عنه ولكان صاحبه متعرضا لغضب الله ولعنته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا. وقال «ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك» فاذا كان هذا محرما وهو سبب لسخط الرب ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه واعتقد ان ذلك من أسباب اجابة الدعوات ونيل الطلبات وقضاء الحاجات وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الاوثان في الناس قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخاري وفي كتب التفسير وقصص الانبياء في قوله تعالى (وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرن وَدا ولا سُواعا ولا يغوثَ ويعوقَ ونَسرا) ان هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدُوهم قال ابن عباس ثم صارت هذه الاوثان في قبائل العرب

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئا آخر ذكروه في زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أُخذ عنه (كصاحب النسر المضنون بها «؟») وغيرها ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم فانهم لا يقرون بان الله خلق السماوات والارض في ستة أيام ولا انه يعلم الجزئيات ويسمع أصوات عباده ويجيب دعاءهم فشفاعة الانبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الايمان من انها دعاء يدعو به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاءه كما ان ما يكون من انزال المطر باستسقائهم ليس سببه عندهم اجابة دعائهم بل هم يزعمون ان المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية فيقولون ان الانسان اذا أحب رجلا صالحا قد مات لا سيما ان زار قبره فانه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير ان يعلم الله بشيء من ذلك بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها بذلك ومثلوا ذلك بالشمس اذا قابلها مرآة فانه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ثم اذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة وان قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه

من شعاع تلك المرآة فهكذا الشفاعة عندهم وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم

وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبره ولا ريب ان الاوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ماهو من أسباب ضلال بني آدم ، وجعل القبور أوثانا هو أول الشرك ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ما يظن انه من الميت [1] وقد يكون من الجن والشياطين مثل ان يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه وهذا يرى عند قبور الانبياء وغيرهم وانما هو شيطان فان الشيطان يتصور بصور الانس ويدعي أحدهم انه النبي فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذبا في ذلك

وفي هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره وهي كثيرة جداً والجاهل يظن ان ذلك الذي رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور أو النبي أو الصالح وغيرهما والمؤمن العظيم يعلم انه شيطان ويتبين ذلك بأمور أحدها ان يقرأ آية الكرسي بصدق فاذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ في الارض أو احتجب ولو كان رجلا صالحا أو ملكا أو جنيا مؤمنا لم تضره آية الكرسي وانما تضر الشياطين

(١) يظن بعض الناس ان كل ما ينقل في هذا المعنى خرافات مخترعة ويعجب كيف راجت على المصنف ولكن من اطلع على ما نقل في هذا الباب عند جميع الامم يعلم أن بعضه صحيح وان منه ماهو مصنوع بحيل الناس ومنه ماهو خيالات وأوهام تمثل لمعتقد ذلك فيرى ويسمع مالا وجود له الا في مخيلته كبعض المحمومين والمصروعين . ولا ينفي هذا ان يكون بعضه من الجن ولكن الله تعالى أخبرنا انا لا نرى الجن فاذا صح عن النبي (ص) رؤيتهم كانت من خوارقه ولا نكلف تصديق غيره في ذلك

كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة لما قال له الجني اقرأ آية الكرسي اذا أويت الى فراشك فانه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي صلى الله عليه وسلم «صدقك وهو كذوب» ومنها ان يستعيذ بالله من الشياطين ومنها ان يستعيذ بالمعوذة الشرعية فان الشياطين كانت تعرض للانبياء في حياتهم وتريد ان تؤذيهم وتفسد عبادتهم كما جاءت الجن الى النبي صلى الله عليه وسلم بشعلة من النار تريد ان تحرقه فأتاه جبريل بالمعوذة المعروفة التي تضمنها الحديث المروي عن أبي التياح انه قال سأل رجل عبد الرحمن ابن حبش[1] وكان شيخا كبيرا قد ادرك النبي صلى الله عليه وسلم كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كادته الشياطين قال تحدرت عليه من الشعاب والأودية وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد «قل» قال ما أقول؟ قال قل «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما يخرج من الارض ومن شر ما ينزل فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق الا طارقا يطرق

---

(١) صوابه كما في الاصابة «خنبش» بالمعجمة الفوقية بعدها نون بوزن (جعفر) وقيل «حبشي» بضم الحاء المهملة والياء المشددة وقيل «خنيس» قال الحافظ في الاصابة: ذكره البخاري في الصحابة وقال في اسناده نظر. وقال ابن منده في حديثه ارسال ابو نعيم اقول وهذا الحديث - وليس له غيره - من مراسيل مكحول عنه كما قال السيوطي. وكان مكحول مدلسا وضعفه ابن سعد وقد روي الحديث من طريق جعفر بن سليمان الرافضي وهو ممن ضعفه بعضهم والمصنف لم يصحح الحديث

بخير يا رحمن » قال فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل . وثبت في الصحيحين عن ابي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان عفريتا من الجن جاءني البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله عز وجل منه فذعته (؟) فأردت ان آخذه فأربطه الى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا اليه ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام (رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) فرده الله تعالى خاسئا» وعن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حتى وجدت برد لسانه على يدي ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقا حتى يراه الناس» أخرجه النسائي واسناده على شرط البخاري كما ذكر ذلك أبو عبد الله المقدسي في مختاره الذي هو خير من صحيح الحاكم. وعن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي صلاة الصبح وهو خلفه فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال «لو رأيتموني وابليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين : الابهام والتي يليها . ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع ان لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل» رواه الامام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه . وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء انه قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فسمعناه «يقول أعوذ بالله منك» ثم قال « ألعنك بلعنة الله ثلاثا» وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من صلاته قلنا يارسول الله سمعناك تقول شيئا في الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال «ان عدو الله

ابليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فاستأخر ثم أردت ان آخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان المدينة» فاذا كانت الشياطين تأتي الانبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الانبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد فكيف من هو دون الانبياء فالنبي صلى الله عليه وسلم قمع شياطين الانس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والاعمال ومن أعظمها الصلاة والجهاد وأكثر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة والجهاد فمن كان متبعا للانبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الانبياء واما من ابتدع دينا لم يشرعوه فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته وابتدع الغلو في الانبياء والصالحين والشرك بهم فان هذا يتلعب به الشياطين قال تعالى (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال تعالى (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين)

ومنها ان يدعو الرائي بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال ومنها ان يقول لذلك الشخص ءانت فلان ويقسم عليه بالاقسام المعظمة ويقرأ عليه قوارع القرآن الى غير ذلك من الاسباب التي تضر الشياطين

وهذا كما ان كثيراً من العباد يرى الكعبة يطوف به ويرى عرشا عظيما وعليه صورة عظيمة ويرى أشخاصا تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن ان تلك الصورة هي الله تعالى وتقدس ويكون ذلك شيطانا وقد جرت

هذه القصة لغير واحد من الناس فمنهم من عصمه الله وعرف انه الشيطان كالشيخ عبد القادر[١] في حكايته المشهورة حيث قال كنت مرة في العبادة فرأيت عرشاً عظيماً وعليه نور فقال لي ياعبد القادر أنا ربك وقد حللت لك ما حرمت على غيرك قال فقلت له «انت الله الذي لا إله الا هو اخسأ ياعدو الله . قال فتمزق ذلك النور وصار ظلمة وقال ياعبد القادر نجوت مني بفقهك في دينك وعلمك وبمنازلاتك في احوالك لقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلا . فقيل له كيف علمت انه الشيطان قال بقوله لي «حللت لك ما حرمت على غيرك» وقد علمت ان شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا تنسخ ولا تبدل ولانه قال انا ربك ولم يقدر ان يقول انا الله الذي لا اله الا أنا[٢]

ومن هؤلاء من اعتقد ان المرئيّ هو الله وصار هو وأصحابه يعتقدون انهم يرون الله تعالى في اليقظة ومستندهم ما شاهدوه وهم صادقون فيما يخبرون به ولكن لم يعلموا ان ذلك هو الشيطان وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد يظن احدهم انه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا لأن كثيرا منهم رأى ما ظن انه الله وانما هو شيطان وكثير منهم رأى من ظن انه نبي أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطانا وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من رآني في المنام فقد رآني حقا فان الشيطان لا يتمثل في صورتي» فهذا في رؤية المنام لان الرؤية في المنام تكون حقا وتكون من الشيطان فمنعه الله ان يتمثل به في المنام واما في اليقظة فلا يراه احد بعينه

---

(١) هو الجيلاني المشهور (٢) انما يتجه الكلام بحذف كلمة الذي او بوضع كلمة هو بدل كلمة أنا الاخيرة

في الدنيا فمن ظن ان المرئي هو الميت فانما أتي من جهله ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان

وبعض من رأى هذا أو صدق من قال انه رآه اعتقد ان الشخص الواحد يكون بمكانين في حالة واحدة نخالف صريح المعقول ومنهم من يقول هذه رقيقة ذلك المرئي أو هذه روحانيته أو هذا معناه تشكل [1] ولا يعرفون انه جني تصور بصورته. ومنهم من يظن انه ملك والملك يتميز عن الجني بأمور كثيرة والجن فيهم الكفار والفساق والجهال وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد صلى الله عليه وسلم تسليما فكثير ممن لم يعرف ان هؤلاء جن وشياطين يعتقدهم ملائكة وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الاوثان تتنزل على احدهم روح يقول هي روحانية الكواكب ويظن بعضهم انه من الملائكة وانما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان فتارة يخبرونه ببعض الامور الغائبة ليكاشف بها وتارة يؤذون من يريد اذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك وتارة يجلبون له من يريده من الانس وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك فيعتقد انه من كرامات الاولياء وانما يكون مسروقا وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به الى مكان بعيد فمنهم من يذهبون به الى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة مع انه لم يحج حج المسلمين لا احرم ولا لبى ولا طاف بالبيت وبين الصفا والمروة ومعلوم ان هذا من أعظم الضلال ومنهم من يذهب الى مكة ليطوف بالبيت

(١) لعلها تشكل أي ظهر في شكل حسي

من غير عمرة شرعية فلا يحرم اذا حاذى الميقات ومعلوم من أراد نسكا بمكة لم يكن له ان يجاوز الميقات الا محرما ولو قصدها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأمورا ايضا بالاحرام من الميقات وهل ذلك واجب أو مستحب؟ فيه قولان مشهوران للعلماء وهذا باب واسع ومنه السحر والكهانة وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع

وعند المشركين عباد الاوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الامة في ذلك من الحكايات ما يطول وصفه فانه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نبيا كان أو غير نبي الا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله كما ان الذين يدعونهم في مغيبهم ويستغيثون بهم فيرون من يكون في صورتهم أو يظنون انه في صورتهم ويقول انا فلان ويكلمهم ويقضي بعض حوائجهم فانهم يظنون ان الميت المستغاث به هو الذي كلمهم وقضى مطلوبهم وانما هو من الجن والشياطين ومنهم من يقول هو ملك من الملائكة والملائكة لا تعين المشركين وانما هم شياطين أضلوهم عن سبيل الله

وفي مواضع الشرك من الوقائع والحكايات التي يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه. وأهل الجاهلية فيها نوعان نوع يكذب بذلك كله ونوع يعتقد ذلك كرامات لاولياء الله فالاول يقول انما هذا خيال في أنفسهم لا حقيقة له في الخارج فاذا قالوا ذلك لجماعة بعد جماعة فمن راى ذلك وعاينه موجودا أو تواتر عنده ذلك عمن رآه موجودا في الخارج وأخبره به من لا يرتاب في صدقه كان هذا من

أعظم أسباب ثبات هؤلاء المشركين المبتدعين المشاهدين لذلك والعارفين به بالأخبار الصادقة

ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلك خضعوا لمن حصل له ذلك وانقادوا له واعتقدوا انه من أولياء الله مع كونهم يعلمون انه لا يؤدي فرائض الله حتى ولا الصلوات الخمس ولا يجتنب محارم الله لا الفواحش ولا الظلم بل يكون من أبعد الناس عن الايمان والتقوى التي وصف الله بها أولياءه في قوله تعالى (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون) فيرون من هو من أبعد الناس عن الايمان والتقوى له من المكاشفات والتصرفات الخارقات ما يعتقدون انه من كرامات أولياء الله المتقين فمنهم من يرتد عن الاسلام وينقلب على عقبيه ويعتقد فيمن لا يصلي بل ولا يؤمن بالرسل بل يسب الرسل ويتنقص بهم انه من أعظم أولياء الله المتقين ومنهم من يبقى حائرا مترددا شاكا مرتابا يقدم الى الكفر رجلا والى الاسلام أخرى وربما كان الى الكفر أقرب منه الى الايمان وسبب ذلك انهم استدلوا على الولاية بما لا يدل عليها فان الكفار والمشركين والسحرة والكهان معهم من الشياطين من يفعل بهم اضعاف اضعاف ذلك قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم) وهؤلاء لا بد ان يكون فيهم كذب وفيهم مخالفة للشرع ففيهم من الاثم والافك بحسب ما فارقوا أمر الله ونهيه الذي بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم وتلك الاحوال الشيطانية نتيجة ضلالهم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم وهي دلالة وعلامة على ذلك والجاهل الضال يظن انها نتيجة ايمانهم

وولايتهم لله تعالى وانها علامة ودلالة على ايمانهم وولايتهم لله سبحانه وذلك انه لم يكن عنده فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قد تكلمنا على ذلك في مسئلة الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولم يعلم ان هذه الاحوال التي جعلها دليلا على الولاية تكون للكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم مما تكون للمنتسبين الى الاسلام والدليل مستلزم للمدلول مختص به لا يوجد بدون مدلوله فاذا وجدت للكفار والمشركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للايمان فضلا عن الولاية ولا كانت مختصة بذلك فامتنع ان تكون دليلا عليه

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون وكراماتهم ثمرة ايمانهم وتقواهم لا ثمرة الشرك والبدعة والفسق وأكابر الاولياء انما يستعملون هذه الكرامات بحجة للدين أو لحاجة للمسلمين والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات واما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه متعد حد ربه وان كان سببها الايمان والتقوى فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فانفقها في طاعة الشيطان فهذا المال وان ناله بسبب عمل صالح فاذا أنفقه في طاعة الشيطان كان وبالا عليه فكيف اذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو الى كفر آخر وفسوق وعصيان ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بان أكثرهم يموتون على غير الاسلام ولبسط هذه الامور موضع آخر

والمقصود هنا ان من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعونه عند الاوثان كإخبار عن غائب أو امر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك فاذا شاهد احدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهي عانقه او كلمه ظن ان ذلك هو النبي المقبور او الشيخ المقبور والقبر لم ينشق وانما الشيطان مثل له

ذلك كما يمثل لاحدهم ان الحائط انشق وانه خرج منه صورة انسان ويكون هو الشيطان تمثل له صورة انسان واراه انه خرج من الحائط

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر نحن لا نبقى في قبورنا بل من حين يقبر احدنا يخرج من قبره ويمشي بين الناس ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنازة يمشي ويأخذ بيده الى انواع أخرى معروفة عند من يعرفها واهل الضلال إما ان يكذبوا بها واما أن يظنوها من كرامات اولياء الله ويظنون ان ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته وربما قالوا هذا روحانيته أو رقيقته أو سره او مثاله او روحه تجسدت حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص في مكانين فيظن ان الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين ولا يعلم بأن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الانسي[1]

وهذا ونحوه مما يبين ان الذين يدعون الانبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وغير قبورهم من المشركين[2] الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا قال تعالى (ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ايأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون) وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب

(١) تقدم في هامش آخر تأويل آخر له (٢) أي هم من المشركين

ربك كان محذورا) وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) ومثل هذا كثير في القرآن ينهى ان يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الانبياء ولا غيرهم فان هذا شرك او ذريعة الى الشرك بخلاف ما يطلب من احدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فانه لا يفضي الى ذلك فان أحدا من الانبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته فانه ينهى من يفعل ذلك بخلاف دعائهم بعد موتهم فان ذلك ذريعة الى الشرك بهم وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة الى الشرك فمن رأى نبيا او ملكا من الملائكة وقال له ادع لي لم يفض ذلك الى الشرك به بخلاف من دعاه في مغيبه فان ذلك يفضي الى الشرك به كما قد وقع فان الغائب والميت لا ينهى من يشرك بل اذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته افضى ذلك الى الشرك به فدعي وقصد مكان قبره او تمثاله او غير ذلك كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من اهل الكتاب ومبتدعة المسلمين ومعلوم ان الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم انك انت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) وقال تعالى (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض الا ان الله هو الغفور

الرحيم* والذين اتخذوا من دونه اولياء الله حفيظ عليهم وما انت عليهم بوكيل)
فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير ان يسألهم أحد وكذلك ماروي ان
النبي صلى الله عليه وسلم او غيره من الانبياء والصالحين يدعو ويشفع
للاخيار من امته هو من هذا الجنس هم يفعلون ما اذن الله لهم فيه بدون
سؤال احد

واذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من
الانبياء والصالحين ولا ان نطلب منهم الدعاء والشفاعة وان كانوا يدعون
ويشفعون لوجهين (احدهما) ان ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وان لم يطلب
منهم وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم فلا فائدة في الطلب منهم
(الثاني) ان دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يفضي الى الشرك
بهم ففيه هذه المفسدة فلو قدر ان فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة
فكيف ولا مصلحة فيه بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فانه
لا مفسدة فيه فانهم ينهون عن الشرك بهم بل فيه منفعة وهو انهم يثابون
ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم فانهم في دار العمل
والتكليف وشفاعتهم في الآخرة فيها اظهار كرامة الله لهم يوم القيمة واصل
سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التي لا يجب عليهم فعلها ليس واجبا على
السائل ولا مستحبا بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة اليه والتوكل عليه

وسؤال الخلق في الاصل محرم لكنه ابيح للضرورة وتركه توكلا على الله
افضل قال تعالى (فاذا فرغت فانصب *والى ربك فارغب) اي ارغب الى الله
لا الى غيره وقال تعالى (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله
سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) فجعل الايتاء لله والرسول

لقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فأمرهم بارضاء الله ورسوله واما في الحسب فأمرهم ان يقولوا «حسبنا الله» لا أن يقولوا حسبنا الله ورسوله، ويقولوا «انا الى الله راغبون» لم يأمرهم ان يقولوا انا الى الله ورسوله راغبون، فالرغبة الى الله وحده كما قال تعالى في الآية الاخرى (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس «ياغلام اني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما انت لاق فلو جهدت الخليقة على ان يضروك لم يضروك الا بشيء كتبه الله عليك فان استطعت ان تعمل لله بالرضاء مع اليقين فافعل فان لم تستطع فان في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً» وهذا الحديث معروف مشهور ولكن قد يروي مختصراً وقوله اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله هو من أصح ما روي عنه. وفي المسند لاحمد ان ابا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني اياه ويقول ان خليلي امرني ان لا اسأل الناس شيئا . وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم بايع طائفة من اصحابه وأسرّ اليهم كلمة خفية ان لا تسألوا الناس شيئا قال عوف فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني أياه . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «يدخل من امتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب {وقال} هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فمدح

هؤلاء بأنهم لا يسترقون أي لا يطلبون من احد ان يرقيهم والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من احد ذلك وقد روي فيه « ولا يرقون» وهو غلط فان رقيتهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرقي نفسه وغيره ولم يكن يسترقي فان رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره وهذا مأمور به فان الانبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وابراهيم وموسى وغيرهم وما يروى ان الخليل لما ألقي في المنجنيق قال له جبريل سل قال «حسبي من سؤالي علمه بحالي» ليس له اسناد معروف وهو باطل بل الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس انه قال « حسبي الله ونعم الوكيل» قال ابن عباس قالها ابراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. وقد روي ان جبريل قال هل لك من حاجة قال «اما اليك فلا» وقد ذكر هذا الامام احمد وغيره واما سؤال الخليل لربه عز وجل فهذا مذكور في القرآن في غير موضع فكيف يقول حسبي من سؤالي علمه بحالي والله بكل شيء عليم وقد امر العباد بان يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه لانه سبحانه جعل هذه الامور اسبابا لما يرتبه عليها من اثابة العابدين واجابة السائلين وهو سبحانه يعلم الاشياء على ما هي عليه فعلمه بان هذا محتاج او هذا مذنب لا ينافي ان يأمر هذا بالتوبة والاستغفار ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الاسباب التي تقضى بها حاجته كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التي بها ينال كرامته ولكن العبد قد يكون مأمورا في بعض الاوقات بما هو افضل من الدعاء كما روي في الحديث «من شغله ذكري عن مسألتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين» وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من

شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين» قال الترمذي حديث حسن غريب

وافضل العبادات البدنية الصلاة وفيها القراءة والذكر والدعاء وكل واحد في موطنه مأمور به ففي القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن وفي الركوع والسجود ينهى عن قراءة القرآن ويؤمر بالدعاء كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في آخر الصلاة ويأمر بذلك والدعاء في السجود حسن مأمور به ويجوز الدعا في القيام ايضا وفي الركوع وان كان جنس القراءة والذكر افضل فالمقصود ان سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور وقد سأل الخليل وغيره قال تعالى عنه (ربنا اني اسكنت من ذريتي بوادغير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون * ربنا انك تعلم مانخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء، الحمدلله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء* رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاءِ * ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وقال تعالى (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم* ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم)

وكذلك دعاء المسلم لاخيه حسن مأمور به وقد ثبت في الصحيح عن ابي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « مامن رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب الا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل آمين ولك بمثله » أي بمثل ما دعوت لاخيك به

واما سؤال المخلوق أن يقضي حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به بخلاف سؤال العلم فان الله امر بسؤال العلم كما في قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وقال تعالى (فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) وقال تعالى (واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون) وهذا لان العلم يجب بذله فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة وهو يذكو على التعليم لا ينقص بالتعليم كما تنقص الاموال بالبذل ولهذا يشبه بالمصباح وكذلك من له عند غيره حق من عين اودين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة لصاحبها ان يسألها ممن هي عنده وكذلك مال الفيء وغيره من الاموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولي الامر للرجل ان يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية لان المستولي يجب عليه اداء الحق الى مستحقه.

ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية وكذلك الغريم له ان يطلب دينه ممن هو عليه وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه اليه فالبائع يسأل الثمن والمشتري يسأل المبيع ومن هذا الباب قوله تعالى (واتقوا الله الذي تَساءلون به والارحام)

ومن السؤال ما لا يكون مأمورا به والمسئول مأمور باجابة السائل

قال تعالى (وأما السائل فلا تنهر) وقال تعالى (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقال تعالى (فكلوا منها واطعموا القانع والمعترّ) ومنه الحديث «ان أحدكم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها ناراً» وقوله «اقطعوا عني لسان هذا»

وقد يكون السؤال منهيا عنه نهي تحريم او تنزيه وان كان المسؤل مأموراً باجابة سؤاله فالنبي صلى الله عليه وسلم كان من كماله ان يعطي السائل وهذا في حقه من فضائله ومناقبه وهو واجب اومستحب وان كان نفس سؤال السائل منهيا عنه ولهذا لم يعرف قط ان الصديق ونحوه من اكابر الصحابة سألوه شيئا من ذلك ولا سألوه ان يدعو لهم وان كانوا يطلبون منه ان يدعو للمسلمين كما اشار عليه عمر في بعض مغازيه لما استأذنوه في نحر بعض ظهرهم[1] فقال عمر يارسول الله كيف بنا اذا لقينا العدو غدا رجالا جياعا ولكن ان رأيت أن تدعو الناس ببقايا ازوادهم فتجمعها ثم تدعو الله بالبركة فان الله يبارك لنا في دعوتك وفي رواية فان الله سيغيثنا بدعائك وانما كان سأله ذلك بعض المسلمين كما سأله الاعمى ان يدعو الله له ليرد عليه بصره وكما سألته أم سليم ان يدعو الله لخادمه انس وكما سأله ابو هريرة أن يدعو الله ان يحببه وامه الى عباده المؤمنين ونحو ذلك. واما الصديق فقد قال الله فيه وفي مثله (وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى * ومالأحد عنده من نعمة تجزى * الا ابتغاء وجه ربه الاعلى * ولسوف يرضى) وقد ثبت في الصحاح عنه انه قال صلى الله عليه وسلم «ان أمنّ الناس علينا في صحبته وذات يده ابو بكر ولو كنت متخذاً من أهل الارض خليلا لاتخذت

(١) الظهر البعير المعد للركوب وكذا غيره

أبا بكر خليلا» فلم يكن في الصحابة اعظم منة من الصديق في نفسه وماله وكان أبو بكر انما يعمل هذا ابتغا وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من مخلوق فقال تعالى (وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * الا ابتغاء وجه ربه الاعلى * ولسوف يرضى) فلم يكن لاحد عند الصديق نعمة تجزى فانه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل احد والنبي صلى الله عليه وسلم كان له على الصديق وغيره نعمة الايمان والعلم وتلك النعمة لا تجزى فان اجر الرسول فيها على الله كما قال تعالى (قل لا اسألكم عليه من اجر ان اجري الا على الله) وأما علي وزيد وغيرهما فان النبي صلى الله عليه وسلم كان له عندهم نعمة تجزى فان زيداً كان مولاه فأعتقه قال تعالى (وإذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك) وعلي كان في عيال النبي صلى الله عليه وسلم لجدب اصاب أهل مكة فاراد النبي صلى الله عليه وسلم والعباس التخفيف عن ابي طالب من عياله فاخذ النبي صلى الله عليه وسلم عليا الى عياله واخذ العباس جعفرا الى عياله وهذا مبسوط في موضع آخر والمقصود هنا ان الصديق كان أمنّ الناس في صحبته وذات يده لأفضل الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه كان ينفق ماله في سبيل الله كاشترائه المعذبين ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا في خاصة نفسه لا الى ابي بكر ولا غيره بل لما قال له في سفر الهجرة ان عندي راحلتين فخذ إحداهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم «بالثمن» فهو افضل صديق لأفضل نبي وكان من كماله انه لا يعمل ما يعمله الا ابتغاء وجه ربه الاعلى لا يطلب جزاء من احد من الخلق لا الملائكة ولا الانبياء ولا غيرهم

ومن الجزاء ان يطلب الدعاء قال تعالى عمن اثنى عليهم (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا) والدعاء جزاء كما في الحديث «من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا ان قد كافأتموه» وكانت عائشة اذا أرسلت الى قوم بصدقة تقول للرسول اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل مادعوا لنا ويبقى أجرنا على الله. وقال بعض السلف اذا قال لك السائل بارك الله فيك فقل وفيك بارك الله فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبيا أو رجلا صالحا أو ملكا من الملوك أو غنيا من الاغنياء فهذا العامل للخير مأمور بان يفعل ذلك خالصا لله يبتغي به وجه الله لا يطلب به من المخلوق جزاء ولا دعاء ولا غيره لا من نبي ولا رجل صالح ولا ملك من الملائكة فان الله أمر العباد كلهم ان يعبدوه مخلصين له الدين

وهذا هو دين الاسلام الذي بعث الله به الاولين والآخرين من الرسل فلا يقبل من أحد دينا غيره قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وكان نوح وابراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الانبياء عليهم السلام على الاسلام قال نوح (وأمرت ان أكون من المسلمين) وقال عن ابراهيم (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين* إذ قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين* ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوبُ يا بنيّ ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنّ الا وأنتم مسلمون) وقال موسى (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) وقالت السحرة (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) وقال يوسف (توفني مسلما

وألحقني بالصالحين) وقال تعالى (انا نزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) وقال عن الحواريين {واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون}

ودين الاسلام مبني على أصلين ان نعبدالله وحده لاشريك له وان نعبده بما شرعه من الدين وهو ماأمرت به الرسل أمر ايجاب أو أمر استحباب فيعبد في كل زمان بما أمر به في ذلك الزمان فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين وكذلك شريعة الانجيل

وكذلك في أول الاسلام لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الى بيت المقدس كانت صلاته اليه من الاسلام ولما أمر بالتوجه الى الكعبة كانت الصلاة اليها من الاسلام والعدول عنها الى الصخرة خروجا عن دين الاسلام فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم ولا بد في جميع الواجبات والمستحبات ان تكون خالصة لله رب العالمين كما قال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وقال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدينَ ألا لله الدين الخالص) فكل ما يفعله المسلم من القُرَب الواجبة والمستحبة كالايمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والاحسان الى عباد الله بالنفع والمال هو مأمور بان يفعله خالصا لله رب العالمين لا يطلب من مخلوق عليه جزاء لا دعاء ولا غير دعاء فهذا مما لا يسوغ ان يطلب عليه جزاء لا دعاء ولا غيره

واما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب الا في بعض المواضع ويكون المسئول مأموراً بالاعطاء قبل السؤال واذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك صلى الله عليه وسلم فانه أجل قدراً وأغنى بالله عن غيره فان سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد مفسدة الافتقار الى غير الله وهي من نوع الشرك ومفسدة ايذاء المسئول وهي من نوع ظلم الخلق وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة وقد نزّه الله رسوله عن ذلك كله وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما ينتفعون به كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات وان كان هو ينتفع بدعائهم له فهو أيضا ينتفع بما يأمرهم به من العبادات والاعمال الصالحة فانه ثبت عنه في الصحيح انه قال «من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا» ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الداعي الى ما تفعله أمته من الخيرات فما يفعلونه له فيه من الاجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ولهذا لم تجر عادة السلف بان يهدوا اليه ثواب الاعمال لان له مثل ثواب أعمالهم بدون الاهداء من غير ان ينقص من ثوابهم شيئا وليس كذلك الابوان فانه ليس كلما يفعله الولد للوالد مثل أجره وانما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه الى الأب كما قال في الحديث الصحيح «اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له» فالنبي صلى الله عليه وسلم فيما يطلبه من أمته من الدعاء طلبه طلب أمر وترغيب ليس بطلب سؤال فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه فهذا قد أمر الله به في القرآن بقوله (صلوا عليه

وسلموا تسليما) والأحاديث عنه في الصلاة والسلام معروفة ومن ذلك أمره بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فانه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وارجو ان أكون انا ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة» وفي صحيح البخاري عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من قال حين سمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاما محموداً الذي وعدته انك لا تخلف الميعاد حلت له شفاعتي يوم القيامة» فقد رغب المسلمين في ان يسألوا الله له الوسيلة وبين ان من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة كما انه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا فان الجزاء من جنس العمل ومن هذا الباب الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه ان عمر بن الخطاب استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن له ثم قال «لا تنسنا يا أخي من دعائك» فطلب النبي صلى الله عليه وسلم من عمر أن يدعو له كطلبه ان يصلي عليه ويسلم عليه وان يسأل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة وهو كطلبه ان يعمل سائر الصالحات فمقصوده نفع المطلوب منه والاحسان اليه وهو صلى الله عليه وسلم أيضا ينتفع بتعليمهم الخير وأمرهم به وينتفع أيضا بالخير الذي يفعلونه من الاعمال الصالحة ومن دعائهم له ومن هذا الباب قول القائل اني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي قال «ما شئت»

قال الربع قال « ماشئت وان زدت فهو خير لك» قال النصف قال «ماشئت وان زدت فهو خير لك » قال الثلثين قال « ما شئت وان زدت فهو خير لك « قال أجعل لك صلاتي كلها قال « اذاً تكفى همك ويغفر لك ذنبك» رواه أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما ، وقد بسط الكلام عليه في جواب المسائل البغدادية فان هذا كان له دعاء يدعو به فاذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته فانه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة « آمين ولك بمثل » فدعاؤه للنبي صلى الله عليه وسلم أولى بذلك

ومن قال لغيره من الناس ادع لي أو لنا وقصده ان ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضا بأمره ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير فهو مقتد بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤتم به ليس هذا من السؤال المرجوح واما ان لم يكن مقصوده الا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والاحسان اليه فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتمين به في ذلك بل هـذا هو من السؤال المرجوح الذي تركه الى الرغبة الى الله ورسوله أفضل من الرغبة الى المخلوق وسؤاله وهذا كله من سؤال الاحياء السؤال الجائز المشروع

واما سؤال الميت فليس بمشروع لا واجب ولا مستحب بل ولا مباح ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا استحب ذلك أحد من سلف الامة لان ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة والشريعة انما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة وهـذا

ليس فيه مصلحة راجحة بل اما ان يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة وكلاهما غير مشروع

فقد تبين ان ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من طلب الدعاء من غيره هو من باب الاحسان الى الناس الذي هو واجب أو مستحب وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم هو من باب الاحسان الى الموتى الذي هو واجب أو مستحب فان الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة فالصلاة حق الحق في الدنيا والآخرة والزكاة حق الخلق فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده بان يعبدوا الله لا يشركوا به شيئا ومن عبادته الاحسان الى الناس حيث أمرهم الله سبحانه به كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين فاستحوذ الشيطان على أتباعه بجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وايذاء المخلوق فانهم اذا كانوا انما يقصدون بزيارة قبور الانبياء والصالحين سؤالهم او السؤال عندهم أوانهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين وكانوا مؤذين ظالمين لمن يسألونه وكانوا ظالمين لانفسهم فجمعوا بين انواع الظلم الثلاثة

فالذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل واحسان واخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم واساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد فان الله تعالى امر المؤمنين بعبادته والاحسان الى عباده كما قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى) وهذا امر بمعالي

الاخلاق وهو سبحانه يحب معالي الاخلاق ويكره سفسافها وقد روي عنه (صلعم) انه قال «انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق» رواه الحاكم في صحيحه وقد ثبت عنه في الصحيح صلى الله عليه وسلم انه قال «اليد العليا خير من اليد السفلى» وقال «اليد العليا هي المعطية واليد السفلى السائلة» وهذا ثابت عنه في الصحيح فأين الاحسان الى عباد الله من ايذائهم بالسؤال والشحاذة لهم واين التوحيد للخالق بالرغبة اليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الاشراك به بالرغبة الى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وان يُحب كما يحب الله؟ واين صلاح العبد في عبودية الله والذل له والافتقار اليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار اليه؟ فالرسول صلى الله عليه وسلم امر بتلك الانواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التي تصلح امور اصحابها في الدنيا والآخرة ونهى عن الانواع الثلاثة التي تفسد أمور اصحابها ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول قال تعالى (ألم اعهد اليكم يا بني آدم الاّ تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين * وان اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد اضل منكم جِبلاً كثيراً افلم تكونوا تعقلون) وقال تعالى (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) وقال تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانا فهو له قرين * وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون *) وذكر الرحمن هو الذكر الذي انزل الله على رسوله الذي قال فيه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وقال تعالى (فإمّا يأتينكم مني هدى فمن اتّبع هداي

فلا يضل ولا يشقى * ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى * قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) وقد قال تعالى (المص. كتاب أُنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكّرون) وقد قال تعالى (كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السماوات وما في الارض وويل للكافرين من عذاب شديد) وقال تعالى (وكذلك اوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور)

فالصراط المستقيم هو مابعث الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بفعل ما امر وترك ما حظر وتصديقه فيما اخبر لا طريق الى الله الا ذلك وهذا سبيل اولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغي والضلال وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا فقال تعالى (والنجم اذا هوى * ماضل صاحبكم وماغوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو الا وحي يوحى) وقد امرنا الله سبحانه ان نقول في صلاتنا (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وقد روى الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون * قال الترمذي حديث صحيح * وقال سفيان بن عيينه كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من

اليهود ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى . وكان غير واحد من السلف يقول احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون فمن عرف الحق ولم يعمل به اشبه اليهود الذين قال الله فيهم (اتأمرون الناس بالبرّ وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون) ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك اشبه النصارى الذين قال الله فيهم (ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تتبعوا اهواءقوم قدضلوامن قبل واضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) فالاول من الغاوين والثاني من الضالين فان الغي اتباع الهوى والضلال عدَم الهوى(؟) قال تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ۞ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) وقال تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) ومن جمع الضلال والغي ففيه شبه من هؤلاء وهؤلاء نسأل الله أن يهدينا وسائر اخواننا صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ،

فصل

اذا عرف هذا فقد تبين ان لفظ الوسيلة والتوسل فيه اجمال واشتباه

يجب ان تُعرف معانيه ويعطى كل ذي حق حقه فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه فان كثيرا من اضطراب الناس في هـذا الباب هو بسبب ما وقع من الاجمال والاشتراك في الالفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب،

فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) وفي قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) فالوسيلة التي أمر الله ان تبتغى اليه واخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها اليه هي ما يتقرب به اليه من الواجبات والمستحبات فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر ايجاب أو استحباب ، وأصل ذلك الايمان بما جاء به الرسول فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل اليه باتباع ما جاء به الرسول لا وسيلة لأحد الى الله الا ذلك

والثاني لفظ الوسيلة في الاحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم «سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وارجو أن أكون انا ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة » وقوله «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة

آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته انك لا تخلف الميعاد حلت له الشفاعة» فهذه الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة وقد أمرنا ان نسأل الله له هذه الوسيلة واخبر انها لا تكون الا لعبد من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد وهذه الوسيلة أمرنا ان نسألها للرسول واخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لان الجزاء من جنس العمل فلما دعوا للنبي صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعوهو لهم فان الشفاعة نوع من الدعاء كما قال انه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا

واما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الاقسام به والسؤال به كما يقسمون بغيره من الانبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح

وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة * فاما المعنيان الاولان الصحيحان باتفاق العلماء فاحدهما هو أصل الايمان والاسلام وهو التوسل بالايمان به وبطاعته والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم فهذان جائزان باجماع المسلمين ومن هذا قول عمر بن الخطاب: اللهم انا كنا اذا اجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا. أي بدعائه وشفاعته * وقوله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) أي القربة اليه بطاعته وطاعة رسوله طاعته قال تعالى (من يطع الرسول فقد اطاع الله) * فهذا التوسل الاول هو اصل الدين وهذا لا ينكره أحد من المسلمين * واما التوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر فانه توسل بدعائه لا بذاته ولهذا عدلوا عن

التوسل به الى التوسل بعمه العباس ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس فلما عدلوا عن التوسل به الى التوسل بالعباس علم ان ما يفعل في حياته قد تعذر بموته بخلاف التوسل الذي هو الايمان به والطاعة له فانه مشروع دائما

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان احدها التوسل بطاعته فهذا فرض لا يتم الايمان الا به والثاني التوسل بدعائه وشفاعته وهذا كان في حياته ويكون يوم القيمة يتوسلون بشفاعته والثالث التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه لا في حياته ولا بعد مماته لا عند قبره ولا غير قبره ولا يعرف هذا في شيء من الادعية المشهورة بينهم * وانما ينقل شيء من ذلك في احاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة كما سنذكر ذلك ان شاء الله تعالى وهذا هو الذي قال أبو حنيفة واصحابه انه لا يجوز ونهوا عنه حيث قالوا لا يسأل بمخلوق ولا يقول احد أسألك بحق انبيائك. قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة. وقد ذكر هذا غير واحد من اصحاب ابي حنيفة * قال بشر بن الوليد: حدثنا ابو يوسف قال قال أبو حنيفة لا ينبغي لأحد ان يدعو الله الا به واكره ان يقول بمعاقد العز من عرشك او بحق خلقك. وهو قول ابي يوسف قال أبو يوسف بمعقد العز من عرشه هو الله فلا اكره هذا واكره ان يقول بحق فلان او بحق انبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام. قال القدوري المسئلة بخلقه لا تجوز لانه لا حق للخلق

على الخالق فلا تجوز وفاقا * وهذا الذي قاله ابو حنيفة واصحابه من ان الله لا يسئل بمخلوق له معنيان احدهما هو موافق لسائر الائمة الذين يمنعون ان يقسم أحد بالمخلوق فانه اذا منع ان يقسم على مخلوق بمخلوق فلأن يمنع ان يقسم على الخالق بمخلوق اولى واحرى . وهذا بخلاف اقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه اقسامه بخلاف المخلوق فان اقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من حلف بغير الله فقد اشرك » وقد صححه الترمذي وغيره وفي لفظ « فقد كفر » وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه في الصحيحين انه قال «من كان حالفا فليحلف بالله» وقال « لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم» وفي الصحيحين عنه انه قال «من حلف باللات والعزى فليقل لا اله الا الله » وقد اتفق المسلمون على انه من حلف بالمخلوقات المحترمة او بما يعتقد هو حرمته كالعرش والكرسي والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الانبياء والصالحين وايمان البندق وسراويل الفتوة وغير ذلك لا ينعقد يمينه ولا كفارة في الحلف بذلك

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب ابي حنيفة واحد القولين في مذهب الشافعي واحمد وقد حكي اجماع الصحابة على ذلك . وقيل هي مكروهة كراهة تنزيه والاول اصح حتى

قال عبد الله ابن مسعود وعبد الله ابن عباس وعبد الله ابن عمر: لأن احلف بالله كاذباً احب الي أن احلف بغير الله صادقا، وذلك لأن الحلف بغير الله شرك والشرك اعظم من الكذب. وانما نعرف النزاع في الحلف بالانبياء فعن احمد في الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم روايتان احداهما لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبي حنيفة والشافعي والثانية ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه وابن المنذر وافق هؤلاء. وقصر أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وعدى ابن عقيل هذا الحكم الى سائر الانبياء. وايجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وان كان نبيا قول ضعيف في الغاية مخالف للاصول والنصوص فالاقسام به على الله والسؤال به بمعنى الاقسام هو من هذا الجنس،

واما السؤال بالمخلوق اذا كانت فيه باء السبب ليست باء القسم وبينهما فرق فان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بإبرار القسم، وثبت عنه في الصحيحين انه قال «ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» قال ذلك لما قال أنس بن النضر أتكسر ثنية الربيع؟ قال لا والذي بعثك بالحق لاتكسر سنها. فقال يا أنس كتاب الله القصاص فرضي القوم وعفوا فقال صلى الله عليه وسلم «ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» وقال «رب اشعث اغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لابره» رواه مسلم وغيره وقال «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا اخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر» وهذا في الصحيحين وكذلك

انس بن النضر[١] والآخر من افراد مسلم ، وقد روي في قوله ان من عباد الله من لو اقسم على الله لأبره انه قال « منهم البراء بن مالك » وكان البراء اذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون يا براء أقسم على ربك فيقسم على الله فتنهزم الكفار ، فلما كانوا على قنطرة بالسوس قالوا يا براء أقسم على ربك فقال يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد. فأبر الله قسمه فانهزم العدو واستشهد البراء بن مالك يومئذ وهذا هو أخو أنس بن مالك قتل مائة رجل مبارزة غير من شرك في دمه وحمل يوم مسيلمة على ترس ورمي به الي الحديقة حتى فتح الباب ،

والاقسام به على الغير ان يحلف المقسم على غيره ليفعلن كذا فان حنثه ولم يبر قسمه فالكفارة على الحالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء كما لو حلف على عبده أو ولده أو صديقه ليفعلن شيئا ولم يفعله فالكفارة على الحالف الحانث واما قوله سألتك بالله ان تفعل كذا فهذا سؤال وليس بقسم ، وفي الحديث « من سألكم بالله فأعطوه » ولا كفارة على هذا اذ لم يجب سؤاله والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم وقد يجيب الله دعاء الكفار فان الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم واذا مسهم الضر في البحر ضل من يدعون الا إياه فلما نجاهم الي البر أعرضوا وكان الانسان كفوراً ،

واما الذين يقسمون على الله فيبر قسمهم فانهم ناس مخصوصون فالسؤال كقول السائل لله أسألك بان لك الحمد انت الله المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام واسألك بانك

(١) المراد حديث أنس بن النضر فالظاهر ان لفظ «حديث» سقط من النسخ

أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد واسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك . فهذا سؤال الله تعالى باسمائه وصفاته وليس ذلك إقسام عليه فان أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم وعفوه من مقتضى اسمه العفو ، ولهذا لما قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم ان وافقت ليلة القدر ما ذا أقول قال قولي «اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عني» وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادي وفي الاثر المنقول عن أحمد بن حنبل انه أمر رجلا ان يقول يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين واجعلني من عبادك الصالحين . وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ولهذا يقال في الدعاء يا رب يارب كما قال آدم (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال نوح (رب اني أعوذ بك ان أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وقال ابراهيم (ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع) وكذلك سائر الانبياء وقد كره مالك وابن ابي عمران من اصحاب ابي حنيفة وغيرهما ان يقول الداعي يا سيدي وقالوا قل كما قالت الانبياء رب رب . واسمه الحي القيوم يجمع اصل معاني الاسماء والصفات كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوله اذا اجتهد في الدعاء

فاذا سئل المسئول بشيء والباء للسبب سئل بسبب يقتضي وجود المسئول فاذا قال اسألك بان لك الحمد انت الله المنان بديع السموات

والارض كان كونه محموداً منانًا بديع السموات والارض يقتضي أن يمن على عبده السائل وكونه محموداً هو يوجب أن يفعل ما يحمد عليه وحمد العبد له سبب اجابة دعائه: ولهذا امر المصلي ان يقول «سمع الله لمن حمده» أي استجاب الله دعاء من حمده فالسماع هنا بمعنى الاجابة والقبول كقوله صلى الله عليه وسلم «اعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع» أي لا يستجاب. ومنه قول الخليل في آخر دعائه (إن ربي لسميع الدعاء) ومنه قوله تعالى (وفيكم سماعون لهم) وقوله (ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) أي لم يأتك أولئك الاقوام ولهذا أمر المصلي ان يدعو بعد حمد الله بعد التشهد المتضمن الثناء على الله سبحانه وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يصلي ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال «عجل هذا» ثم دعاه فقال «اذا صلى احدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل على النبي صلى الله عليه وسلم وليدع بعد بما شاء» أخرجه ابو داوود والترمذي وصححه وقال عبدالله بن مسعود كنت اصلي والنبي صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر معه فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم بالصلاة على نبيه ثم دعوت لنفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم «سل تعطه» رواه الترمذي وحسنه فلفظ السمع يراد به ادراك الصوت ويراد به معرفة المعنى مع ذلك ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم. قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) ثم قال (ولو اسمعهم) على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثم (لتولوا وهم معرضون) فذمهم بانهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به

واذا قال السائل لغيره اسألك بالله فانما سأله بإيمانه بالله وذلك سبب لاعطاء

من سأله به فانه سبحانه يحب الاحسان الى الخلق لا سيما ان كان المطلوب كف الظلم فانه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم وأمره أعظم الاسباب في حض الفاعل فلا سبب أولى من أن يكون مقتضيا لمسببه من امر الله تعالى وقد جاء فيه حديث رواه احمد في مسنده وابن ماجه عن عطية العوفي عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه علم الخارج الى الصلاة ان يقول في دعائه «واسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فاني لم أخرج اشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك» فان كان هذا صحيحا فحق السائلين عليه ان يجيبهم وحق العابدين له ان يثيبهم وهو حق اوجبه على نفسه لهم كما يسئل بالايمان والعمل الصالح الذي جعله سببا لاجابة الدعاء كما في قوله تعالى (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) وكما يسئل بوعده لأن وعده يقتضي إنجاز ما وعده ومنه قول المؤمنين (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار) وقوله (انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا امنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخريا حتى انسوكم ذكري) ويشبه هذا مناشدة النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر حيث يقول «اللهم أنجز لي ما وعدتني» وكذلك ما في التوراة ان الله تعالى غضب على بني اسرائيل فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ما وعد به ابراهيم فانه سأله بسابق وعده لابراهيم

ومن السؤال بالاعمال الصالحة سؤال الثلاثة الذين أووا الى غار فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم اخلص فيه لله لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه محبة تقتضي اجابة صاحبه: هذا سأل ببره لوالديه وهذا سأل بعفته التامة

وهذا سأل بامانته واحسانه وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر « اللهم امرتني فأطعتك ودعوتني فاجبتك وهذا سحر فاغفر لي » ومنه حديث ابن عمر انه كان يقول على الصفا اللهم انك قلت وقولك الحق (ادعوني أستجب لكم) وانك لا تخلف الميعاد ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر انه كان يقوله على الصفا

فقد تبين أن قول القائل اسألك بكذا نوعان فان الباء قد تكون للقسم وقد تكون للسبب فقد تكون قسما به على الله وقد تكون سؤالا بسببه * فاما الاول فالقسم بالمخلوقات لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق وأما الثاني وهو السؤال المعظم كالسؤال بحق الانبياء فهذا فيه نزاع وقد تقدم عن ابي حنيفة واصحابه انه لا يجوز ذلك فنقول قول السائل لله تعالى اسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والانبياء والصالحين وغيرهم أو بجاه فلان أو بحرمة فلان يقتضي ان هؤلاء لهم عند الله جاه وهذا صحيح فان هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضي ان يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم اذا شفعوا مع انه سبحانه قال (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) ويقتضي أيضا ان من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيدا ومن أطاع أمرهم الذي بلغوه عن الله كان سعيدا ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم ما يقتضي اجابة دعائه اذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك بل جاههم ينفعه اذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين وينفعه أيضاً اذا دعوا له وشفعوا فيه فاما اذا لم يكن دعاء ولا شفاعة ولا منه سبب يقتضي الاجابة لم يكن متشفعا بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعا له عند الله بل يكون قد سأل

بأمر أجنبي عنه ليس سببا لنفعه . ولو قال الرجل لمطاع كبير أسألك بطاعة فلان لك وبحبك له على طاعتك وبجاهه عندك الذي أوجبته طاعته لك قد سأله[1] بأمر أجنبي لا تعلق له به فكذلك احسان الله الى هؤلاء المقربين ومحبته لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم اياه ليس في ذلك ما يوجب اجابة دعاء من يسأل بهم وانما يوجب اجابة دعائه بسبب منه اطاعته لهم أو سبب منهم لشفاعتهم له فاذا انتفى هذا وهذا فلا سبب

نعم لو سأل الله بايمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ومحبته له وطاعته له واتباعه له لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضي اجابة الدعاء بل هذا أعظم الاسباب والوسائل والنبي صلى الله عليه وسلم بين ان شفاعته في الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك وهي مستحقة لمن دعا له بالوسيلة كما في الصحيح انه قال « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وارجو أن أكون انا هو ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة» وفي الصحيح ان أبا هريرة قال له أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة قال «من قال لا إله الا الله خالصا من قلبه» فبين صلى الله عليه وسلم ان أحق الناس بشفاعته يوم القيامة من كان أعظم توحيداً واخلاصا لان التوحيد جماع الدين والله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فهو سبحانه لا يشفع عنده أحداً الا باذنه فاذا شفع محمد صلى الله عليه وسلم حدّ له

(١) هذا جواب «ولو قال» والظاهر انه سقط منه كلمة ولعل الاصل «لكان قد سأله» الخ

ربه حداً فيدخلهم الجنة وذلك بحسب ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والايمان وذكر صلى الله عليه وسلم انه من سأل الله له الوسيلة حلت عليه شفاعته يوم القيامة فبين ان شفاعته تنال باتباعه بما جاء به من التوحيد والايمان وبالدعاء الذي سن لنا ان ندعو له به،

وأما السؤال بحق فلان فهو مبني على أصلين أحدهما ماله من الحق عند الله والثاني هل نسأل الله بذلك كما نسأل بالجاه والحرمة أما الاول فمن الناس من يقول للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل وقاس المخلوق على الخالق كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم ومن الناس من يقول لا حق للمخلوق على الخالق بحال لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره كما يقول ذلك من يقوله من اتباع جهم والاشعري وغيرهما ممن ينتسب الى السنة ومنهم من يقول بل كتب الله على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه حقا لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم. كما قال في الحديث الصحيح الالهي «ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» وقال تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وفي الصحيحين عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يامعاذ أتدري ماحق الله على عباده؟ قلت الله ورسوله اعلم قال (حقه عليهم ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا يامعاذ أتدري ماحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك قال [1]

(١) لم يذكر في الاصل الذي طبعنا عنه جواب معاذ هنا وهو كالاول

حقهم عليه ان لا يعذبهم) فعلى هذا القول لانبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجبه على نفسه مع اخباره وعلى الثاني يستحقون ما أخبر بوقوعه وان لم يكن ثم سبب يقتضيه

فمن قال ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به ـ كما روي ان الله تعالى قال لداود وأي حق لآبائك علي ـ صحيح اذا أريد بذلك انه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق وهذا كما يظنه جهال العباد من ان لهم على الله سبحانه حقا بعبادتهم وذلك ان النفوس الجاهلية تتخيل ان الانسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ويقول له عند جفاء أو اعراض يراه منه ألم أفعل كذا ؟ يمن عليه بما يفعله معه وان لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه . وتخيل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الانسان وظلمه ولهذا بين سبحانه ان عمل الانسان يعود نفعه عليه وان الله غني عن الخلق كما في قوله تعالى (ان احسنتم احسنتم لأنفسكم وان اسأتم فلها) وقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) وقوله تعالى (إن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم) وقوله تعالى (ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم) وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد * وقال موسى إن تكفروا انتم ومن في الارض جميعا فإن الله غني حميد) وقال تعالى (ولا يحزنك الذين يسارعون

في الكفر انهم لن يضروا الله شيئا) وقال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين) وقد بين سبحانه انه المانّ بالعمل فقال تعالى (يمنون عليك أن اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) وقال تعالى (واعلموا ان فيكم رسولَ الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتُّم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكرَّه اليكم الكفرَ والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) وفي الحديث الصحيح الالهي « ياعبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ياعبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعا ولا ابالي فاستغفروني اغفر لكم ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا، ياعبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، ياعبادي لو أن اولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فاعطيت كل انسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا ادخل البحر »

وبين الخالق تعالى والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له ادنى بصيرة * (منها) ان الرب تعالى غني بنفسه عما سواه ويمتنع ان يكون مفتقراً الى غيره بوجه من الوجوه والملوك وسادة العبيد محتاجون الى غيرهم حاجة ضرورية * (ومنها) ان الرب تعالى وان كان يحب الاعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين فهو الذي يخلق ذلك وييسره فلم

يحصل ما يحبه ويرضاه الا بقدرته ومشيئته وهذا ظاهر على مذهب اهل السنة والجماعة الذين يقرون بان الله هو المنعم على عباده بالايمان بخلاف القدرية والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره * (ومنها) ان الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم كما قال قتادة ان الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته اليهم ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلا عليهم بل امرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم ، بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج اليه وينهاه عما ينهاه بخلا عليه . وهذا ايضا ظاهر على مذهب السلف واهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته ويقولون انه لم يأمر العباد الا بخير ينفعهم ولم ينههم الا عن شر يضرهم بخلاف المجبرة الذين يقولون انه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم * (ومنها) انه سبحانه هو المنعم بارسال الرسل وانزال الكتب وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك مما به يحصل العلم والعمل الصالح وهو الهادي لعباده فلا حول ولا قوة الا به . ولهذا قال اهل الجنة (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك (ومنها) أن نعمه على عباده اعظم من أن تحصى فلو قدر ان العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر قليل منها فكيف والعبادة من نعمته ايضا . (ومنها) ان العباد لا يزالون مقصرين محتاجين الى عفوه ومغفرته فلن يدخل أحد الجنة بعمله وما من أحد الاوله ذنوب يحتاج فيها الى مغفرة الله لها (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقوله صلى الله عليه وسلم «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» لا يناقض قوله تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) فان المنفي نفي بباء المقابلة والمعاوضة كما يقال بعت هذا بهذا وما

اثبت أثبت بياء السبب فالعمل لا يقابل الجزاء وان كان سببا للجزاء ولهذا من ظن انه قام بما يجب عليه وانه لا يحتاج الى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «لن يدخل أحد الجنة بعمله — قالوا ولا أنت يا رسول الله قال — ولا أنا الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل» وروى بمغفرته. ومن هذا أيضا الحديث الذي في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم» الحديث

ومن قال بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح اذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه فان الله صادق لا يخلف الميعاد وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته، وهذا المستحق لهذا الحق اذا سأل الله تعالى به يسأل الله تعالى إنجاز وعده أو يسأله بالاسباب التي علق الله بها المشيئات[1] كالاعمال الصالحة فهذا مناسب ، واما غير المستحق لهذا الحق اذا سأله بحق ذلك الشخص فهو كما لو سأله بجاه ذلك الشخص وذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب اجابة دعائه ، واما سؤال الله باسمائه وصفاته التي تقتضي ما يفعله بالعباد من الهدى والرزق والنصر فهذا أعظم ما يسئل الله تعالى به فقول المنازع لا يسأل بحق الانبياء فانه لا حق للمخلوق على الخالق ممنوع فانه قد ثبت في الصحيحين حديث معاذ الذي تقدم ايراده ، وقال تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة ه وكان حقا علينا نصر المؤمنين)

---

(١) لعله المسببات

فيقال للمنازع الكلام في هذا في مقامين أحدهما في حق العباد على الله والثاني في سؤاله بذلك الحق أما الاول فلا ريب ان الله تعالى وعد المطيعين بان يثيبهم ووعد السائلين بان يجيبهم وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد قال الله تعالى (وعدَ الله حقا ومن أصدق من الله قيلا * وعدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ولا تحسبنّ الله مخلف وعده رسلَه) فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين وتنازعوا هل عليه واجب بدون ذلك على ثلاثة أقوال كما تقدم قيل لا يجب لأحد عليه حق بدون ذلك وقيل بل يجب عليه واجبات ويحرم عليه محرمات بالقياس على عباده وقيل هو أوجب على نفسه وحرم على نفسه فيجب عليه ما أوجبه على نفسه ويحرم عليه ما حرمه على نفسه كما ثبت في الصحيح من حديث أبي ذر كما تقدم. والظلم ممتنع منه باتفاق المسلمين لكن تنازعوا في الظلم الذي لا يقع فقيل هو الممتنع [1] وكل ممكن يمكن ان يفعله لا يكون ظلما لان الظلم اما التصرف في ملك الغير واما مخالفة الامر الذي يجب عليه طاعته وكلاهما ممتنع منه وقيل بل ما كان ظلما من العباد فهو ظلم منه وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا قال تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال المفسرون هو ان يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم ان يهضم من حسناته وقال تعالى (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم)

واما المقام الثاني فانه يقال ما بين الله ورسوله انه حق للعباد على

(١) اي المحال الذي لا تتعلق به قدرته تعالى

الله فهو حق لكن الكلام في السؤال بذلك ، فيقال ان كان الحق الذي سأل به سببا لاجابة السؤال حسن السؤال به كالحق الذي يجب لعابديه وسائليه ، واما اذا قال السائل بحق فلان وفلان فأولئك اذا كان لهم عند الله حق ان لا يعذبهم وان يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه فليس في استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله ما يكون سببا لمطلوب هذا السائل فان ذلك استحق ما استحقه بما يسره الله له من الايمان والطاعة وهذا لا يستحق ما استحقه ذلك فليس في اكرام الله لذلك سبب يقتضي اجابة هذا . وان قال السبب هو شفاعته ودعاؤه فهذا حق اذا كان قد شفع له ودعا له وان لم يشفع له ولم يدع لم يكن هناك سبب . وان قال السبب هو محبتي له وايماني به وموالاتي له فهذا سبب شرعي وهو سؤال لله وتوسل اليه بإيمان هذا السائل ومحبته لله ورسوله وطاعته لله ورسوله لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله فمن أحب مخلوقا كما يحب الخالق فقد جعله ندا لله وهذه المحبة تضره ولا تنفعه واما من كان الله تعالى أحب اليه مما سواه وأحب أنبياءه وعباده الصالحين له فحبه لله تعالى هو أنفع الاشياء ، والفرق بين هذين من أعظم الامور

فان قيل اذا كان التوسل بالايمان به ومحبته وطاعته على وجهين تارة يتوسل بذلك الى ثوابه وجنته — وهذا أعظم الوسائل — وتارة يتوسل بذلك في الدعاء كما ذكرتم نظائره فيحمل قول القائل أسألك بنبيك محمد على انه أراد اني أسألك بإيماني به وبمحبته وأتوسل اليك بإيماني به ومحبته ، نحو ذلك وقد ذكرتم ان هذا جائز بلا نزاع ، قيل من

أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع[1] وإذا حمل على هذا المعنى الكلام من توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الامام أحمد وغيره كان هـذا حسنا . وحينئذ فلا يكون في المسئلة نزاع ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر وهذا كما ان الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته وهذا جائز بلا نزاع ثم ان أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ.

فان قيل فقد يقول الرجل لغيره بحق الرحم قيل الرحم توجب على صاحبها حقا لذي الرحم كما قال الله تعالى (واتقوا الله الذي تَساءلون به والارحام) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله» وقال «لما خلق الله الرحم تعلقت بحقوي الرحمن وقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال الا ترضين ان اصل من وصلك واقطع من قطعك قالت بلى قد رضيت» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته» وقد روي عن علي انه كان اذا سأله ابن أخيه بحق جعفر ابيه اعطاه لحق جعفر على علي ، وحق ذي الرحم باق بعد موته كما في

---

(١) ان ارادة هذا المعنى تصور هكذا : اللهم اجعل إيماني بنبيك (ص) واتباعي له وحبي إياه وسيلة وسبباً لدخول الجنة مثلا أي بأن يكون هذا مقبولا عندك . ولكن لا يأتي مثل هذا في التوسل لشفاء المرض وسعة الرزق فان الايمان والاتباع ليس من أسباب الشفاء وانما أسبابه المعالجة واستعمال الادوية كما هو مجرب وورد به الحديث

الحديث ان رجلا قال يارسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال «نعم الدعاء لهما والاستغفار لهما وإنفاذ وعدهما من بعدهما وصلة رحمك التي لا رحم لك الا من قبلهما» وفي الحديث الآخر حديث ابن عمر من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد ان يولي فضله اقارب الميت واصدقائه بعد موته هو من تمام بره (؟)

والذي قاله أبو حنيفة واصحابه وغيرهم من العلماء من انه لا يجوز أن يسأل الله تعالى بمخلوق لا بحق الانبياء ولا غير ذلك يتضمن شيئين كما تقدم أحدهما الاقسام على الله سبحانه وتعالى به وهذا منهي عنه عند جماهير العلماء كما تقدم كما ينهى ان يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء * والثاني السؤال به فهذا يجوزه طائفة من الناس ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف وهو موجود في دعاء كثير من الناس لكن ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله ضعيف بل موضوع وليس عنه حديث ثابت قد يظن ان لهم فيه حجة الا حديث الاعمى الذي علمه ان يقول اسألك واتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة *

وحديث الاعمى لا حجة لهم فيه فانه صريح في انه انما توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته وهو طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم ان يقول اللهم شفعه فيّ ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك مما يعد من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسؤال به لم يكن حالهم كحاله

ودعاء امير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والانصار وقوله «اللهم انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وإنّا نتوسل اليك بعم نبينا » يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته اذ لو كان هذا مشروعا لم يعدل عمر والمهاجرون والانصار عن السؤال بالرسول الى السؤال بالعباس وساغ النزاع في السؤال بالانبياء والصالحين دون الاقسام بهم لان بين السؤال والاقسام فرقا فان السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الاجابة والمقسم اعلا من هذا فانه طالب مؤكد طلبه بالقسم والمقسم لا يقسم الا على من يرى انه يبر قسمه فإبرار القسم خاص ببعض العباد واما اجابة السائلين فعام فان الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وان كان كافراً * وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه الله بها احدى خصال ثلاث اما ان يعجل له دعوته واما ان يدخر له من الخير مثلها واما ان يصرف عنه من الشر مثلها» قالوا يا رسول الله اذا نكثرُ قال « الله أكثر»

وهذا التوسل بالانبياء بمعنى السؤال بهم ـ وهو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم انه لا يجوز ـ ليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك فضلا ان يجعل هذا من مسائل السبب فمن نقل عن مذهب مالك انه جوز التوسل به بمعنى الاقسام به أو السؤال به فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه فضلا عن ان يقول مالك ان هذا سب للرسول أو تنقص به بل المعروف عن مالك انه كره للداعي ان يقول ياسيدي سيدي وقال قل كما قالت الانبياء يارب يارب يا كريم، وكره أيضا ان يقول ياحنان يامنان

فانه ليس بمأثور عنه فاذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء اذ لم يكن مشروعا عنده فكيف يجوز عنده ان يسأل الله بمخلوق نبيا كان أوغيره وهو يعلم ان الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق لا نبي ولا غيره بل قال عمر اللهم انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون. وكذلك ثبت في الصحيح عن ابن عمر وأنس وغيرهما انهم كانوا اذا اجدبوا انما يتوسلون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم واستسقائه لم ينقل عن أحد منهم انه كان في حياته صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى بمخلوق لا به ولا بغيره لا في الاستسقاء ولا غيره ، وحديث الأعمى سنتكلم عليه ان شاء الله تعالى فلو كان السؤال به معروفا عند الصحابة لقالوا لعمر ان السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس فلم نعدل عن الامر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق الى ان نتوسل ببعض أقاربه وفي ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الافضل وسؤال لله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على اعلاهما ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجدب . والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين فتوسلوا بيزيد بن الاسود الجرشي كما توسل عمر بالعباس

وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم انه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح قالوا وان كان من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو افضل اقتداء بعمر ولم يقل أحد من أهل العلم انه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي

وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره[1] بعد موتهم أو نقل ذلك عن امام من أئمة المسلمين غير مالك كالشافعي واحمد وغيرهما فقد كذب عليهم ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند الى حكاية مكذوبة عن مالك ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذي فيها هو هذا بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ولكن من الناس من يحرف نقلها واصلها ضعيف كما سنبينه ان شاء الله تعالى والقاضي عياض لم يذكرها في كتابه في باب زيارة قبره بل ذكر هناك ما هو المعروف عن مالك واصحابه وانما ذكرها في سياق أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته وذكر[2] عند ذكره وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه وذكر عن مالك انه سئل عن ايوب السختياني فقال ما حدثتكم عن أحد الا وايوب افضل منه قال وحج حجتين فكنت ارمقه فلا اسمع منه غير انه كان اذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى ارحمه فلما رأيت منه ما رأيت واجلاله للنبي صلى الله عليه وسلم كتبت عنه . قال مصعب ابن عبدالله كان مالك اذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه فقيل له يوماً في ذلك فقال لو رأيتم ما رأيت لما انكرتم عليّ ما ترون لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا نكاد نسأله عن حديث أبداً الا يبكي حتى نرحمه ولقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فاذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اصفر لونه وما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في الاصل « أو غير » ولعل الصواب أو غيره من الانبياء (٢) كذا في الاصل والظاهر انه تحريف وان الصواب « وذلك عند ذكره » الخ

الا على طهارة ولقد اختلفت اليه زمانا فما كنت أراه الا على ثلاث خصال اما مصليا واما صامتا واما يقرأ القرآن ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم فينظر الى لونه كأنه نزف منهُ الدم وقد جف لسانهُ في فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم — ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فاذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع ولقد رأيت الزهري وكان لمن اهنأ الناس وأقربهم فاذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه ما عرفك ولا عرفته — ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين فاذ ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه

وهذا كله نقله القاضي عياض من كتب أصحاب مالك المعروفة ثم ذكر الحكاية باسناد غريب منقطع رواها عن غير واحد أجازة قالوا حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهات قال حدثنا أبو الحسن علي بن فهر، ثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج ، ثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب ، ثنا يعقوب ابن اسحاق بن أبي اسرائيل، ثنا ابن حميد قال ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فان الله أدب قوما قال (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) الآية ومدح قوما فقال (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية وذمّ قوما فقال (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) الآية وان حرمته ميتا كحرمته حيا فاستكان لها أبو جعفر. فقال يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام الى الله يوم القيامة بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله قال الله تعالى (ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما)

قلت وهذه الحكاية منقطعة فان محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكا لا سيما في زمن أبي جعفر المنصور فان أبا جعفر توفي بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة وتوفي مالك سنة تسع وسبعين ومائة وتوفي محمد بن حميد الرازي سنة ثمان وأربعين ومائتين ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم الا وهو كبير مع أبيه وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث كذبه أبو زرعة وابن واره وقال صالح بن محمد الاسدي مارأيت أحداً أجرأ على الله منه واحذق بالكذب منه. وقال يعقوب بن شيبة كثير المناكير. وقال النسائي ليس بثقة . وقال ابن حبان ينفرد عن الثقات بالمقلوبات. وآخر من روى الموطأ عن مالك هو ابو مصعب وتوفي سنة اثنتين واربعين ومائتين وآخر من روى عن مالك على الاطلاق هو ابو حذيفة احمد بن اسماعيل السهمي توفي سنة تسع وخمسين ومائتين وفي الاسناد أيضا من لا تعرف حاله

وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالاخذ عنه ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث اذا أسند فكيف اذا أرسل حكاية لا تعرف الا من جهته هذا ان ثبتت عنه وأصحاب مالك متفقون على انه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له في مسألة في الفقه بل اذا روى عنه الشاميون كالوليد بن مسلم ومروان

ابن محمد الطاطري ضعفوا رواية هؤلاء وانما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث

مع ان قوله وهو: وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام الى الله يوم القيامة انما يدل على توسل آدم وذريته به يوم القيامة وهذا هو التوسل بشفاعته يوم القيامة وهذا حق كما جاءت به الاحاديث الصحيحة حين تأتي الناس يوم القيامة آدم ليشفع لهم فيردهم آدم الى نوح ثم يردهم نوح الى ابراهيم وابراهيم الى موسى وموسى الى عيسى ويردهم عيسى الى محمد صلى الله عليه وسلم فانه كما قال «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر» ولكنها مناقضة لمذهب مالك المعروف من وجوه احدها قوله استقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله وأدعو فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم. فان المعروف عن مالك وغيره من الائمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين ان الداعي اذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أراد ان يدعو لنفسه فانه يستقبل القبلة ويدعو في مسجده ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه بل انما يستقبل القبر عند السلام على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء له هذا قول أكثر العلماء كمالك في احدى الروايتين والشافعي واحمد وغيرهم وعند اصحاب ابي حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضا ثم منهم من قال يجعل الحجرة على يساره وقد رواه ابن وهب عن مالك ويسلم عليه ومنهم من قال بل يستدبر الحجرة ويسلم عليه وهذا هو المشهور عندهم ومع هذا فكره مالك ان يطيل القيام عند القبر لذلك قال القاضي عياض

في المبسوط عن مالك قال لا أرى ان يقف عند قبر النبي صلى عليه وسلم يدعو ولكن يسلم ويمضي قال وقال نافع كان ابن عمر يسلم على القبر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء الى القبر فيقول السلام على النبي صلى الله عليه وسلم السلام على ابي بكر السلام على ابي ثم ينصرف . ورؤي واضعا يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ثم وضعها على وجهه قال وعن ابن ابي قسيط والقعنبي كان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اذا خلا المسجد جسوا برمانة المنبر التي تلق القبر [(١)] بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون قال وفي الموطإ من رواية يحيي ابن يحيي الليثي انه كان يعني ابن عمر يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وعمر وعند ابن القاسم والقعنبي ويدعو لأبي بكر وعمر قال مالك في رواية ابن وهب يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وقال في المبسوط ويسلم على أبي بكر وعمر قال ابو الوليد الباجي وعندي ان يدعو للنبي صلى الله عليه وسلم بلفظ الصلاة ولأبي بكر وعمر [(٢)] لما في حديث ابن عمر من الخلاف وهذا الدعاء يفسر الدعاء المذكور في رواية ابن وهب قال مالك في رواية ابن وهب اذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا يقف ووجهه الى القبر لا الى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر فهذا هو السلام عليه والدعاء له بالصلاة عليه كما تقدم تفسيره وكذلك كل دعاء ذكره أصحابه كما ذكر ابن حبيب في الواضحة وغيره قال وقال مالك في المبسوط وليس يلزم من

---

(١) لعل الصواب « تلقاء القبر » (٢) الظاهر انه سقط من قلم الناسخ شيء هنا وان الاصل « ولأبي بكر وعمر بلفظ الرحمة »

دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر وانما ذلك للغرباء وقال فيه أيضا ولا بأس لمن قدم من سفر اوخرج الى سفر ان يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي عليه ويدعو له ولابي بكر وعمر. قيل له فان ناس من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر[1] وربما وقفوا في الجمعة أو الايام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة فقال مالك لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ولا يصلح آخر هذه الأمة الا ما أصلح أولها ولم يبلغني عن أول هذه الامة وصدرها انهم كانوا يفعلون ذلك ويكره الا لمن جاء من سفر أو أراده[2] قال ابن القاسم ورأيت أهل المدينة اذا خرجوا منها أودخلوا أتوا القبر فسلموا قال ولذلك رأي (؟) قال أبو الوليد الباجي ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قال وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تجعلوا قبري عيداً» قال ومن كتاب أحمد بن شعبة فيمن وقف بالقبر لا يلتصق به ولا يمسه ولا يقف عنده طويلا ، وفي العتبية يعني عن مالك

---

(١) في هذه الجملة تحريف والظاهر انها هكذا « فان ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه الا يفعلون ذلك » على ان المعنى يصح بدون الا

(٢) في هذا النقل حجة على مبتدعي الاختلاف الى القبر الاشرف وسائر قبور الانبياء والصالحين المرة بعد المرة لدعاء الله والتبرك به دعاء أصحاب القبور أنفسهم وسيأتي تفصيله للمصنف

يبدأ بالركوع [١] قبل السلام في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث العمود المخلق واما في الفريضة فالتقدم الى الصفوف قال والتنفل فيه للغرباء أحب الي من التنفل في البيوت

فهذا قول مالك وأصحابه وما نقلوه عن الصحابة يبين انهم لم يقصدون [٢] القبر الا للسلام على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء له وقد كره مالك اطالة القيام لذلك وكره ان يفعله أهل المدينة كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه وانما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له فانه تحية للنبي صلى الله عليه وسلم فاما اذ قصد الرجل الدعاء لنفسه فانما يدعو في مسجده مستقبل القبلة كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينقل عن أحد من الصحابة انه فعل ذلك عند القبر بل ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم فكيف بدعائه لنفسه ،

واما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ومعلوم انه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعا لفعله الصحابة والتابعون وكذلك السؤال به فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته فدل ذلك على ان ما في الحكاية المنقطعة من قوله «استقبله واستشفع به» كذب على مالك مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التي يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر

---

(١) يعني بالركوع الصلاة كتحية المسجد (٢) الظاهر ان أصل العبارة « لم يكونوا يقصدون القبر » الخ والا لقال « يقصدوا » بحذف النون

العلماء اذ كان أحد منهم لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه فضلا عن ان يستقبله ويستشفع به يقول له يارسول الله اشفع لي اوادع لي أو يشتكي اليه المصائب الدين والدنيا (١) أو يطلب منه أو من غيره من الموتى من الانبياء والصالحين او من الملائكة الذين لا يرام ان يشفعوا له او يشتكي اليهم المصائب فان هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة ليس هذا من فعل السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين وان كانوا يسلمون عليه اذ كان يسمع السلام عليه من القريب ويبلغ سلام البعيد

وقد احتج أحمد وغيره بالحديث الذي رواه أحمد وأبو داوود باسناد جيد من حديث حيوة ابن شريح المصري، حدثنا أبو صخر عن يزيد بن قسيط عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال «ما من أحد يسلم عليّ الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام» وعلى هذا الحديث اعتمد الأئمة في السلام عليه عند قبره صلوات الله وسلامه عليه، فان أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء منها في الدين ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئا منها وانما يرويها من يروي الضعاف كالدارقطني والبزار وغيرهما وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله ابن عمر العمري وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه مثل قوله «من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي» فان هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين فان من زاره في حياته وكان مؤمنا به كان

(١) أي في الدين والدنيا فسقط لفظ «في» أوالاصل مصائب بالتنكير

من أصحابه لا سيما ان كان من المهاجرين اليه المجاهدين معه وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه قال «لا تسبوا اصحابي فوالذي نفسي بيده لو انفق احدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» أخرجاه في الصحيحين والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة باعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين بل ولا شرع السفر اليه بل هو منهي عنه. وأما السفر الى مسجده للصلاة فيه والسفر الى المسجد الاقصى للصلاة فيه فهو مستحب والسفر الى الكعبة للحج فواجب فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا اليه في حياته فكيف بالسفر المنهي عنه وقد اتفق الائمة على أنه لو نذر أن يسافر الى قبره صلوات الله وسلامه عليه أو قبر غيره من الانبياء والصالحين لم يكن عليه أن يوفي بنذره بل ينهى عن ذلك ولو نذر السفر الى مسجده والمسجد الاقصى للصلاة ففيه قولان للشافعي اظهرهما عنه يجب ذلك وهو مذهب مالك واحمد والثاني لا يجب وهو مذهب ابي حنيفة لان من اصله انه لا يجب من النذر الا ما كان واجبا بالشرع واتيان هذين المسجدين ليس واجبا بالشرع فلا يجب بالنذر عنده . وأما الاكثرون فيقولون هو طاعة لله وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من نذر ان يطيع الله فليطعه ومن نذر ان يعصي الله فلا يعصه».

وأما السفر الى زيارة قبور الانبياء والصالحين فلا يجب بالنذر عند أحد منهم لانه ليس بطاعة فكيف يكون من فعل هذا كواحد من اصحابه وهذا مالك كره أن يقول الرجل زرت قبر رسول الله صلى الله

عليه وسلم واستعظمه وقد قيل ان ذلك ككراهية زيارة القبور وقيل لان الزائر أفضل من المزور وكلاهما ضعيف عند اصحاب مالك والصحيح أن ذلك لان لفظ زيارة القبر مجمل يدخل فيها الزيارة البدعية التي هي من جنس الشرك فان زيارة قبور الانبياء وسائر المؤمنين على وجهين كما تقدم ذكره زيارة شرعية وزيارة بدعية فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم كما يقصد الصلاة على أحدهم اذا مات فيصلى عليه صلاة الجنازة فهذه الزيارة الشرعية .والثاني أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم أو لاعتقاده ان الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت اوأن الاقسام بهم على الله وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضي اجابة الدعاء فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها فاذ كان لفظ الزيارة مجملا يحتمل حقا وباطلا عدل عنه الى لفظ لا لبس فيه كلفظ السلام عليه ولم يكن لأحد أن يحتج على مالك بما روي في زيارة قبره أو زيارته بعد موته فان هذه كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة لا يحتج بشيء منها في أحكام الشريعة

والثابت عنه صلى الله عليه وسلم انه قال «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» هذا هو الثابت في الصحيح ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال قبري وهو صلى الله عليه وسلم حين قال هذا القول لم يكن قد قبر بعد صلوات الله وسلامه عليه ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة انما تنازعوا في موضع دفنه ولو كان هذا عندهم لكان نصا في محل النزاع ولكن دفن في حجرة عائشة في الموضع الذي مات فيه بابي هو وامي صلوات الله عليه وسلامه ثم لما وسع المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان نائبه على المدينة عمر بن

عبدالعزيز أمره أن يشتري الحُجر ويزيدها في المسجد وكانت الحجر من جهة المشرق والقبلة فزيدت في المسجد ودخلت حجرة عائشة في المسجد من حينئذ وبنوا الحائط البراني مسنما محرفا فانه ثبت في صحيح مسلم من حديث ابي مرثد الغنوي انه قال صلى الله عليه وسلم «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها» لان ذلك يشبه السجود لها وان كان المصلي انما يقصد الصلاة لله تعالى كما نهى عن اتخاذها مساجد نهي عن قصد الصلاة عندها وان كان المصلي انما يقصد الصلاة لله سبحانه والدعاء له فمن قصد قبور الانبياء والصالحين لاجل الصلاة والدعاء عندها فقد قصد نفس الحرام الذي سد الله ورسوله ذريعته وهذا بخلاف السلام المشروع حسبما تقدم.

وقد روى سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان لله ملائكة سياحين في الارض يبلغوني عن امتي السلام» رواه النسائي وابو حاتم في صحيحه وروي نحوه عن ابي هريرة فهذا فيه ان سلام البعيد تبلغه الملائكة. وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو الاشعث الصنعاني عن أوس بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اكثروا علي من الصلاة في كل يوم جمعة فان صلاة أمتي تعرض علي يومئذ فمن كان أكثرهم عليّ صلاة كان اقربهم مني منزلة». وفي مسند الامام احمد حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن ابي ذئب عن المقبري عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تتخذوا قبري عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبورا وصلوا عليّ حيث ما كنتم فان صلاتكم تبلغني» ورواه أبو داوود قال القاضي عياض وروى أبو بكر بن ابي شيبة عن ابي

هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى عليّ عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائيا أبلغته» وهـذا قد رواه محمد بن مروان السدي عن الاعمش عن أبي صالح عن ابي هريرة وهذا هو السدي الصغير وليس بثقة وليس هذا من حديث الاعمش. وروى ابو يعلى الموصلي في مسنده عن موسى بن محمد بن حبان عن ابي بكر الحنفي، حدثنا عبد الله بن نافع حدثنا العلاء ابن عبد الرحمن سمعت الحسن بن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً ولا تتخذوا بيتي عيداً صلوا علي وسلموا فان صلاتكم وسلامكم يبلغني» وروى سعيد بن منصور في سننه ان عبدالله بن حسين بن حسن بن علي بن ابي طالب رأى رجلا يكثر الاختلاف الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ياهذا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي حيث ما كنتم فان صلاتكم تبلغني» فما انت ورجل بالاندلس منه الا سواء. وروي هذا المعنى عن علي بن الحسين زين العابدين عن ابيه عن علي بن ابي طالب، ذكره أبو عبدالله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ في مختاره الذي هو أصح من صحيح الحاكم، وذكر القاضي عياض عن الحسن ابن علي قال اذا دخلت فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاتتخذوا بيتي عيداً ولاتتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا علي حيث كنتم فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم »

وىما يوهن هذه الحكاية انه قال فيها «ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم الى الله يوم القيامة» انما يدل على انه يوم القيامة تتوسل الناس بشفاعته، وهذا حق كما تواترت به الاحاديث لكن اذا كان

الناس يتوسلون بدعائه وشفاعته يوم القيمة كما كان أصحابه يتوسلون بدعائه وشفاعته في حياته فانما ذاك طلب لدعائه وشفاعته فنظير هذا لو كانت الحكاية صحيحة ان يطلب منه الدعاء والشفاعة في الدنيا عند قبره ومعلوم ان هذا لم يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولا سنه لأمته ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين لا مالك ولا غيره من الأئمة فكيف يجوز ان ينسب الى مالك مثل هذا الكلام الذي لا يقوله الا جاهل لا يعرف الادلة الشرعية ولا الاحكام المعلومة بأدلتها الشرعية مع علو قدر مالك وعظم فضيلته وامامته وتمام رغبته في اتباع السنة وذم البدع وأهلها وهل يأمر بهذا أو يشرعه الا مبتدع ؟ فلو لم يكن عن مالك قول يناقض هذا لعلم انه لا يقول مثل هذا ،

ثم قال في الحكاية «استقبله واستشفع به فيشفعك الله» والاستشفاع به معناه في اللغة ان اطلب منه الشفاعة كما يستشفع الناس به يوم القيامة وكما كان أصحابه يستشفعون به ومنه الحديث الذي في السنن ان اعرابيا قال يارسول الله جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فانا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال «ويحك أتدري ماتقول ؟ شأن الله أعظم من ذلك انه لا يستشفع به على أحد من خلقه» وذكر تمام الحديث فأنكر قوله يستشفع بالله عليك * ومعلوم انه لا ينكر ان يسئل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله وانما انكر ان يكون الله شافعا الى المخلوق، ولهذا لم ينكر قوله نستشفع بك على الله فانه هو الشافع المشفع

وهم لو كانت الحكاية صحيحة انما يجيئون اليه لأجل طلب شفاعته صلى الله

عليه وسلم ولهذا قال في تمام الحكاية (ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك) الآية ، وهؤلاء اذا شرع لهم ان يطلبوا منه الشفاعة والاستغفار بعد موته فاذا أجابهم فانه يستغفر لهم واستغفاره لهم دعاء منه وشفاعة ان يغفر الله لهم واذا كان الاستشفاع منه طلب شفاعته فانما يقال في ذلك «استشفع به فيشفعه الله فيك» لا يقال فيشفعك الله فيه . وهذا معروف الكلام ولغة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر العلماء يقال شفع فلان في فلان فشفع فيه فالمشفع الذي يشفعه المشفوع اليه هو الشفيع المستشفع به لا السائل الطالب من غيره ان يشفع له فان هذا ليس هو الذي شفع ، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو الشفيع المشفع ليس المشفع الذي يستشفع به ولهذا يقول في دعائه يا رب شفعني فيشفعه الله فيطلب من الله سبحانه ان يشفعه لا ان يشفع طالبي شفاعته فكيف يقول واستشفع به فيشفعك الله ؟

وأيضا فان طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعاً عند أحد من أئمة المسلمين ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الاربعة وأصحابهم القدماء وانما ذكر هذا بعض المتأخرين ذكروا حكاية عن النبي انه رأى اعرابيا أتى قبره وقرأ هذه الآية وانه رأى في المنام ان الله غفر له وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين الذين يفتي الناس بأقوالهم ومن ذكرها لم يذكر عليها دليلا شرعياً ومعلوم انه لو كان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعا لكان الصحابة والتابعون لهم باحسان اعلم بذلك واسبق اليه من غيرهم ولكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك ، وما أحسن ما قال مالك

«لا يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها» قال ولم يبلغني عن أول هذه الامة وصدرها انهم كانوا يفعلون ذلك فمثل هذا الامام كيف يشرع دينا لم ينقل عن أحد من السلف ويأمر الامة بان يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار بعد موت الانبياء والصالحين منهم عند قبورهم وهو أمر لم يفعله أحد من سلف الامة ؟

ولكن هذا اللفظ الذي في الحكاية يشبه لفظ كثير من العامة الذين يستعملون لفظ الشفاعة في معنى التوسل فيقول أحدهم اللهم انا نستشفع اليك بفلان وفلان أي نتوسل به ويقولون لمن توسل في دعائه بنبي أو غيره قد تشفع به من غير ان يكون المستشفع به شفع له ولا دعا له بل وقد يكون غائبا لم يسمع كلامه ولا شفع له وهذا ليس هو لغة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعلماء الامة بل ولا هو لغة العرب فان الاستشفاع طلب الشفاعة والشافع هو الذي يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المسئول المدعو المشفوع اليه ، واما الاستشفاع بمن لم يشفع للسائل ولا طلب له حاجة بل وقد لا يعلم بسؤاله فليس هذا استشفاعا لا في اللغة ولا في كلام من يدري ما يقول ، نعم هذا سؤال به ودعاؤه ليس هو استشفاعا به ولكن هؤلاء لما غيروا اللغة كما غيروا الشريعة وسموا هذا استشفاعا أي سؤالا بالشافع صاروا يقولون استشفع به فيشفعك أي يجيب سؤالك به وهذا مما يبين ان هذه الحكاية وضعها جاهل بالشرع واللغة وأين لفظها من لفظ مالك

ثم قد يكون أصلها صحيحا ويكون مالك قد نهى عن رفع الصوت في مسجد الرسول اتباعا للسنة كما كان عمر ينهى عن رفع الصوت في مسجده ويكون مالك

أمرءا أمر الله به من تعزيزه وتوقيره ونحو ذلك مما يليق بمالك ان يأمر به ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي صلى الله عليه وسلم وعادتهم في الكلام والا حرف الكلم عن مواضعه فان كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قوم وعادتهم في الالفاظ ثم يجد تلك الالفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن ان مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الالفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك ،

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامة وغيرهم وآخرون يتعمدون وضع ألفاظ الانبياء واتباعهم على معاني أخر مخالفة لمعانيهم ثم ينطقون بتلك الالفاظ مريدين بها ما يعنونه هم ويقولون انا موافقون للانبياء وهذا موجود في كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والاسماعيلية ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة والمتصوفة مثل من وضع المحدث والمخلوق والمصنوع على ما هو معلول وان كان قديما أزليا ويسمي ذلك الحدوث الذاتي ثم يقول نحن نقول ان العالم محدث وهو مراده، ومعلوم ان لفظ المحدث بهذا الاعتبار ليس لغة أحد من الامم وانما المحدث عندهم ما كان بعد ان لم يكن

وكذلك يضعون لفظ الملائكة على ما يثبتونه من العقول والنفوس وقوى النفس ولفظ الجن والشياطين على بعض قوى النفس ثم يقولون نحن نثبت ما أخبرت به الانبياء وأقربه جمهور الناس من الملائكة والجن والشياطين ومن عرف مراد الانبياء ومرادهم علم بالاضطرار ان هذا ليس هو ذاك مثل ان يعلم مرادهم بالعقل الاول

وانه مقارن عندهم لرب العالمين ازلا وأبداً وانه مبدع لكل ما سواه أو بتوسطه حصل كل ما سواه والعقل الفعال عندهم عنه يصدر كل ما تحت فلك القمر ويعلم بالاضطرار من دين الانبياء انه ليس من الملائكة عندهم من هو رب كل ما سوى الله ولا رب كل ما تحت فلك القمر ولا من هو قديم أزلي أبدي لم يزل ولا يزال ، ويعلم ان الحديث الذي يروى «أول ماخلق الله العقل» حديث باطل عن النبي صلى الله عليه وسلم مع انه لو كان حقا لكان حجة عليهم فان لفظه «أول ما خلق الله العقل» بنصب الاول على الظرفية « فقال له اقبل فاقبل ثم قال ادبر فأدبر فقال وعزتي ما خلقت خلقا أكرم علي منك فبك آخذ وبك أعطي وبك الثواب وبك العقاب» وروي « لما خلق الله العقل » فالحديث لو كان ثابتا كان معناه انه خاطب العقل في أول أوقات خلقه وانه خلق قبله غيره وانه يحصل به هذه الامور الاربعة لا كل المصنوعات والعقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا ويراد به القوة التي بها يعقل وعلوم واعمال تحصل بذلك لا يراد بها قط في اللغة جوهر قائم بنفسه فلا يمكن ان يراد هذا المعنى بلفظ العقل مع انا قد بينا في مواضع أخر فساد ما ذكروه من جهة العقل الصريح وان ماذكروه من المجردات والمفارقات ينتهي أمرهم فيه الى اثبات النفس التي تفارق البدن بالموت والى اثبات ما تجرده النفس من المعقولات القائمة بها فهذا منتهى ما يثبتونه من الحق في هذا الباب

والمقصود هنا ان كثيرا من كلام الله ورسوله يتكلم به من يسلك مسلكهم ويريد مرادهم لا مراد الله ورسوله كما يوجد في كلام صاحب الكتب المضنون بها وغيره مثل ماذكره في اللوح المحفوظ حيث جعله

النفس الفلكية ولفظ القلم حيث جعله العقل الاول ولفظ الملكوت والجبروت والملك حيث جعل ذلك عبارة عن النفس والعقل ولفظ الشفاعة حيث جعل ذلك فيضا يفيض من الشفيع على المستشفع وان كان الشفيع قد لا يدري وسلك في هذه الامور ونحوها مسالك ابن سينا كما قد بسط في موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر من يقع ذلك منه من غير تدبر منه للغة الرسول صلى الله عليه وسلم كلفظ القديم فانه في لغة الرسول التي جاء بها القرآن خلاف الحديث وان كان مسبوقا بغيره كقوله تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) وقال تعالى عن اخوة يوسف (تالله انك لفي ضلالك القديم) وقوله تعالى (افرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الاقدمون) وهو عند أهل الكلام عبارة عما لم يزل أو عما لم يسبقه وجود غيره ان لم يكن مسبوقا بعدم نفسه ويجعلونه اذا أريد به هذا من باب المجاز ولفظ المحدث في لغة القرآن تقابل للفظ القديم في القرآن وكذلك لفظ الكلمة في لغة القرآن والحديث وسائر لغة العرب انما يراد به الجملة التامة كقوله صلى الله عليه وسلم « كلمتان حبيبتان الى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقوله « ان اصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد * الا كل شيء ماخلا الله باطل * » ومنه قوله تعالى (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) وقوله تعالى(قل يااهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) الآية وقوله تعالى (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) وأمثال ذلك ولا يوجد لفظ الكلام في لغة العرب الا بهذا المعنى والنحاة اصطلحوا على ان يسموا الاسم وحده والفعل

والحرف كلمة ثم يقول بعضهم وقد يراد بالكلمة الكلام فيظن من اعتاد هذا ان هذا هو لغة العرب وكذلك لفظ ذوي الارحام في الكتاب والسنة يراد به الاقارب من جهة الابوين فيدخل فيهم العصبة وذوو الفروض وان شمل ذلك من لا يرث بفرض ولا تعصيب ثم صار ذلك في اصطلاح الفقهاء اسما لهؤلاء دون غيرهم فيظن من لا يعرف الا ذلك ان هذا هو المراد بهذا اللفظ في كلام الله ورسوله وكلام الصحابة ونظائر هذا كثيرة

ولفظ التوسل والاستشفاع ونحوهما دخل فيهما من تغيير لغة الرسول وأصحابه ما أوجب غلط من غلط عليهم في دينهم ولغتهم والعلم يحتاج الى نقل مصدق ونظر محقق والمنقول عن السلف والعلماء يحتاج الى معرفة بثبوت لفظ ومعرفة دلالته كما يحتاج الى ذلك المنقول عن الله ورسوله فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة بأن الله أمرنا ان نصلي على النبي ونسلم عليه في كل مكان فهذا مما اتفق عليه المسلمون وكذلك رغبنا وحضنا في الحديث الصحيح على ان نسأل الله له الوسيلة والفضيلة وان يبعثه مقاما محمودا الذي وعده فهذه الوسيلة التي شرع لنا ان نسألها الله تعالى كما شرع لنا ان نصلي عليه ونسلم عليه هي حق له كما ان الصلاة عليه والسلام حق له صلى الله عليه وسلم . والوسيلة التي أمرنا الله ان نبتغيها اليه هي التقرب الى الله بطاعته وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله وهذه الوسيلة لا طريق لنا اليها الا باتباع النبي صلى الله عليه وسلم بالايمان به وطاعته وهذا التوسل به فرض على كل أحد وأما التوسل بدعائه وشفاعته كما يسأله الناس يوم القيامة ان يشفع لهم وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته في الاستسقاء وغيره مثل توسل الاعمى بدعائه حتى رد الله عليه بصره

بدعائه وشفاعته فهذا نوع ثالث هو من باب قبول الله دعاءه وشفاعته لكرامته عليه فمن شفع له الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا له فهو بخلاف من لم يدع ولم يشفع به ولكن بعض الناس ظن ان توسل الصحابة به كان بمعنى انهم يقسمون به ويسألون به فظن هذا مشروعاً مطلقاً لكل أحد في حياته ومماته وظنوا ان هذا مشروع في حق الانبياء والملائكة بل وفي الصالحين وفيمن يظن فيهم الصلاح وان لم يكن صالحاً في نفس الامر ، وليس في الاحاديث المرفوعة في ذلك حديث في شيء من دواوين المسلمين التي يعتمد عليها في الاحاديث لا في الصحيحين ولا كتب السنن ولا المسانيد المعتمدة كمسند الامام أحمد وغيره وانما يوجد في الكتب التي عرف ان فيها كثيراً من الاحاديث الموضوعة المكذوبة التي يختلقها الكذابون بخلاف من قد يغلط في الحديث ولا يتعمد الكذب فان هؤلاء توجد الرواية عنهم في السنن ومسند الامام أحمد ونحوه بخلاف من يتعمد الكذب فان أحمد لم يرو في مسنده عن أحد من هؤلاء ولهذا تنازع الحافظ أبو العلاء الهمداني والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي هل في المسند حديث موضوع فانكر الحافظ أبو العلاء ان يكون في المسند حديث موضوع واثبت ذلك أبو الفرج وبين ان فيه أحاديث قد علم انها باطلة ولا منافاة بين القولين فان الموضوع في اصطلاح أبي الفرج هو الذي قام دليل على انه باطل وان كان المحدث به لم يتعمد الكذب بل غلط فيه ولهذا روى في كتابه في الموضوعات أحاديث كثيرة من هذا النوع وقد نازعه طائفة من العلماء في كثير مما ذكره وقالوا انه ليس مما يقوم دليل على انه باطل بل بينوا ثبوت بعض ذلك لكن الغالب على ما ذكره

في الموضوعات انه باطل باتفاق العلماء ، واما الحافظ أبو العلاء وأمثاله فانما يريدون بالموضوع المختلق المصنوع الذي تعمد صاحبه الكذب والكذب كان قليلا في السلف

اما الصحابة فلم يعرف فيهم ولله الحمد من تعمد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق ولا كان فيهم من قال انه أتاه الخضر فان خضر موسى مات كما بين هذا في غير هذا الموضع والخضر الذي يأتي كثيراً من الناس انما هو جني تصور بصورة أنسي أو أنسي كذاب ولا يجوز ان يكون ملكا مع قوله انا الخضر فان الملك لا يكذب وانما يكذب الجني والانسي وأنا أعرف ممن أتاه الخضر وكان جنيا مما يطول ذكره في هذا الموضع وكان الصحابة اعلم من ان يروج عليهم هذا التلبيس وكذلك لم يكن فيهم من حملته الجن الى مكة وذهبت به الى عرفات ليقف بها كما فعلت ذلك بكثير من الجهال والعباد وغيرهم ولا كان فيهم من تسرق الجن أموال الناس وطعامهم وتأتيه به فيظن ان هذا من باب الكرامات كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع .

وأما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب في التابعين من أهل مكة والمدينة والشام والبصرة بخلاف الشيعة فان الكذب معروف فيهم وقد عرف الكذب بعد هؤلاء في طوائف وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس بل في الصحابة من قد يغلط احيانا وفيمن بعدهم ولهذا كان فيما صنف في الصحيح احاديث يعلم انها غلط وان كان جمهور

متون الصحيحين مما يعلم انه حق فالحافظ أبو العلاء يعلم انها غلط والامام احمد نفسه قد بين ذلك وبين انه رواها لتعرف بخلاف ما تعمد صاحبه الكذب ولهذا نزه احمد مسنده عن احاديث جماعة يروي عنهم اهل السنن كابي داود والترمذي مثل مشيخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده وان كان ابو داود يروي في سننه منها فشرط احمد في مسنده أجود من شرط ابي داود في سننه

والمقصود ان هذه الاحاديث التي تروى في ذلك من جنس أمثالها من الاحاديث الغريبة المنكرة بل الموضوعة التي يرويها من يجمع في الفضائل والمناقب الغث والسمين كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف في فضائل الأوقات وفضائل العبادات وفضائل الانبياء والصحابة وفضائل البقاع ونحو ذلك فان هذه الابواب فيها احاديث صحيحة واحاديث حسنة واحاديث ضعيفة واحاديث كذب موضوعة ولا يجوز ان يعتمد في الشريعة على الاحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة لكن احمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا ان يروى في فضائل الاعمال مالم يعلم انه ثابت اذا لم يعلم انه كذب وذلك ان العمل اذا علم انه مشروع بدليل شرعي وروي في فضله حديث لا يعلم انه كذب جاز ان يكون الثواب حقا ولم يقل أحد من الائمة انه يجوز ان يجعل الشيء واجبا أو مستحبا بحديث ضعيف ومن قال هذا فقد خالف الاجماع.

وهذا كما انه لا يجوز ان يحرم شيء الا بدليل شرعي لكن اذا علم تحريمه وروي حديث في وعيد الفاعل له ولم يعلم انه كذب جاز ان يرويه فيجوز ان يروي

في الترغيب والترهيب مالم يعلم انه كذب لكن فيما علم ان الله رغب فيه أورهب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله

وهذا كالاسرائيليات يجوز ان يروى منها مالم يعلم انه كذب للترغيب والترهيب فيما علم ان الله تعالى أمر به في شرعنا ونهى عنه في شرعنا فاما ان يثبت شرعا لنا بمجرد الاسرائيليات التي لم يثبت[1] فهذا لا يقوله عالم ولا كان احمد ابن حنبل ولا أمثاله من الائمة يعتمدون على مثل هذه الاحاديث في الشريعة ومن نقل عن احمد انه كان يحتج بالحديث الضعيف الذي ليس بصحيح ولا حسن فقد غلط عليه ولا كن[2] كان في عرف احمد بن حنبل ومن قبله من العلماء ان الحديث ينقسم الى نوعين صحيح وضعيف والضعيف عندهم ينقسم الى ضعيف متروك لا يحتج به والى ضعيف حسن كما ان ضعف الانسان بالمرض ينقسم الى مرض مخوف يمنع التبرع من رأس المال والى ضعيف خفيف لا يمنع من ذلك

وأول من عرف انه قسم الحديث ثلاثة أقسام صحيح وحسن وضعيف هو ابو عيسى الترمذي في جامعه والحسن عنده ما تعددت طرقه ولم يكن في رواته متهم وليس بشاذ فهذا الحديث وأمثاله يسميه احمد ضعيفا ويحتج به ولهذا مثل احمد الحديث الضعيف الذي يحتج به بحديث عمرو بن شعيب وحديث ابراهيم الهجري ونحوهما، وهذا مبسوط في موضعه

والاحاديث التي تروى في هذا الباب وهو السؤال بنفس المخلوقين هي من

---

(١) كذا في الاصل والظاهر انه سقط منه شيء بالنسخ والمعنى انه لا يقول أحد بأنه يثبت بالاسرائيليات نفسها حكم شرعي بل غايتها ان تكون مؤكدة لحكم ثبت عندنا بدليله (٢) الظاهر ان كلة كن زائدة

الاحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة ولا يوجد في ائمة الاسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها مثل الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده أن أبا بكر الصديق أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اني اتعلم القرآن ويتفلت مني فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «قل اللهم اني اسألك بمحمد نبيك وبابراهيم خليلك وبموسى نجيك وعيسى روحك وكلمتك وبتوراة موسى وانجيل عيسى وزبور داوود وفرقان محمد وبكل وحي اوحيته وقضاء قضيته» وذكر تمام الحديث وهذا الحديث ذكره رزين بن معاوية العبدري في جامعه ونقله ابن الاثير في جامع الاصول ولم يعزه لا هذا ولا هذا الى كتاب من كتب المسلمين لكنه قد رواه من صنف في عمل يوم وليله كابن السني وابي نعيم وفي مثل هذه الكتب احاديث كثيرة موضوعة لا يجوز الاعتماد عليها في الشريعة باتفاق العلماء وقد رواه ابو الشيخ الاصبهاني في كتاب فضائل الاعمال وفي هذا الكتاب احاديث كثيرة كذب موضوعة، ورواه ابو موسى المديني من حديث زيد بن الحباب عن عبد الملك بن هارون بن عنترة وقال هذا حديث حسن مع انه ليس بالمتصل قال ابو موسى ورواه محرز بن هشام عن عبد الملك عن ابيه عن جده عن الصديق رضي الله عنه وعبد الملك ليس بذاك القوي القوي وكان بالري وابوه وجده ثقتان

قلت عبد الملك بن هارون بن عنترة من المعروفين بالكذب قال يحيى بن معين وقال السعدي دجال كذاب وقال ابو حاتم بن حبان يضع الحديث وقال النسائي متروك وقال البخاري منكر الحديث وقال احمد بن حنبل ضعيف وقال ابن عدي له احاديث لا يتابعه عليها احد وقال الدارقطني هو وابوه ضعيفان وقال

الحاكم في كتاب المدخل عبد الملك بن هارون بن عنترة الشيباني روى عن ابيه احاديث موضوعة واخرجه ابو الفرج بن الجوزي في كتاب الموضوعات، وقول الحافظ ابي موسى هو منقطع يريد انه لو كان رجاله ثقات فان اسناده منقطع

وقد روى عبد الملك هذه الاحاديث الاخر المناسب[1] لهذا في استفتاح أهل الكتاب به كما سيأتي ذكره وخالف فيه عامة ما نقله المفسرون واهل السير وما دل عليه القرآن وهذا يدل على ما قاله العلماء فيه من انه متروك اما لتعمده الكذب واما لسوء حفظه وتبين انه لا حجة لا في هذا ولا في ذاك

ومثل ذلك الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن زيد بن اسلم عن ابيه عن جده عن عمر بن الخطاب مرفوعا وموقوفا عليه «انه لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب اسألك بحق محمد لما غفرت لي قال وكيف عرفت محمداً قال لانك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا اله الا الله محمد رسول الله فعلمت انك لم تضف الى اسمك الا احب الخلق اليك قال صدقت يا آدم ولولا محمد ما خلقتك» وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن مسلم الفهري عن اسماعيل بن سلمة عنه قال الحاكم وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن في هذا الكتاب وقال الحاكم هو صحيح، ورواه الشيخ أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة موقوفا على عمر من حديث عبد الله بن اسماعيل

(١) كذا والظاهر ان يكون «المناسبة» الا ان يكون سقط من النسخ فاعل مذكر لاسم الفعل كلفظ «معناه» اي المناسب معناه لهذا

ابن أبي مريم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم موقوفا ، ورواه الاجري أيضا من طريق آخر من حديث عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه موقوفا عليه ، وقال حدثنا هارون بن يوسف التاجر حدثنا أبو مروان العثماني حدثني أبو عثمان بن خالد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه انه قال «من الكلمات التي تاب الله بها على آدم قل اللهم اني أسألك بحق محمد عليك قال الله تعالى وما يدريك ما محمد قال يارب رفعت رأسي فرأيت مكتوبا على عرشك لا إله الا الله محمد رسول الله فعلمت انه أكرم خلقك »

قلت ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه فانه نفسه قد قال في كتاب المدخل الى معرفة الصحيح من السقيم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة ان الحمل فيها عليه ، قلت وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيرا ضعفه أحمد ابن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني وغيرهم وقال أبو حاتم ابن حبان كان يقلب الاخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل واسناد الموقوف فاستحق الترك

واما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا ان الحاكم يصحح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث كما صحح حديث زريب ابن برثملي الذي فيه ذكر وصي المسيح وهو كذب باتفاق أهل المعرفة كما بين ذلك البيهقي وابن الجوزي وغيرهما ، وكذلك أحاديث كثيرة في مستدركه يصححها وهي عند أئمة أهل العلم بالحديث موضوعة ومنها ما يكون موقوفا يرفعه ، ولهذا كان اهل العلم الحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم وان كان غالب ما يصححه فهو

صحيح لكن هو في المصححين بمنزلة الثقة الذي يكثر غلطه وان كان الصواب اغلب عليه وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه بخلاف أبي حاتم ابن حبان البستي فان تصحيحه فوق تصحيح الحاكم وأجل قدرا وكذلك تصحيح الترمذي والدارقطني وابن خزيمة وابن منده وأمثالهم فيمن يصحح الحديث فان هؤلاء وان كان في بعض ما ينقلونه نزاع فهم اتقن في هذا الباب من الحاكم ولا يبلغ تصحيح الواحد من هؤلاء مبلغ تصحيح مسلم ولا يبلغ تصحيح مسلم مبلغ تصحيح البخاري بل كتاب البخاري أجل ما صنف في هذا الباب والبخاري من أعرف خلق الله بالحديث وعلله مع فقهه فيه وقد ذكر الترمذي انه لم ير أحدا أعلم بالعلل منه ، ولهذا كان من عادة البخاري اذا روي حديث اختلف في اسناده أو في بعض ألفاظه يذكر الاختلاف في ذلك لئلا يغتر بذكره له بانه انما ذكره مقرونا بالاختلاف فيه .

ولهذا كان جمهور ما انكر على البخاري مما صححه يكون قوله فيه راجحا على قول من نازعه بخلاف مسلم بن الحجاج فانه نوزع في عدة احاديث مما خرجها وكان الصواب فيها مع من نازعه كما روى في حديث الكسوف ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى بثلاث ركوعات وباربع ركوعات كما روى انه صلى بركوعين والصواب انه لم يصل الا بركوعين وانه لم يصل الكسوف الا مرة واحدة يوم مات ابراهيم وقد بين ذلك الشافعي وهو قول البخاري واحمد بن حنبل في احدى الروايتين عنه ، والاحاديث التي فيها الثلاث والاربع فيها انه صلاها يوم مات ابراهيم ومعلوم انه لم يمت في يومي كسوف ولا كان له ابراهيمان ، ومن نقل انه

مات عاشر الشهر فقد كذب، وكذلك روى مسلم خلق الله التربة يوم السبت ونازعه فيه من هو اعلم منه كيحيي بن معين والبخاري وغيرهما فبينوا ان هذا غلط ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم والحجة مع هؤلاء فانه قد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع ان الله تعالى خلق السموات والارض في ستة ايام وان آخر ما خلقه هو آدم وكان خلقه يوم الجمعة. وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي انه خلق ذلك في الايام السبعة، وقد روى اسنادا اصح من هذا ان اول الخلق كان يوم الاحد. وكذلك روى ان أبا سفيان لما اسلم طلب من النبي صلى الله عليه وسلم ان يتزوج بام حبيبة وأن يتخذ معاوية كاتبا، وغلطه في ذلك طائفة من الحفاظ

ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث تلقوها بالقبول واجمعوا عليها وهم يعلمون علما قطعيا ان النبي صلى الله عليه وسلم قالها. وبسط الكلام في هذا له موضع آخر

وهذا الحديث المذكور في آدم يذكره طائفة من المصنفين بغير اسناد وما هو من جنسه مع زيادات أخر كما ذكر القاضي عياض قال وحكى ابو محمد المكي وابو الليث السمرقندي وغيرهما « ان آدم عند معصيته قال اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي — قال ويروى تقبل توبتي — فقال الله له من اين عرفت محمداً قال رأيت في كل موضع من الجنة مكتوبا لا اله الا الله محمد رسول الله — قال ويروى محمد عبدي ورسولي — فعلمت انه اكرم خلقك عليك فتاب عليه وغفر له » ومثل هذا لا يجوز ان تبنى عليه الشريعة ولا يحتج به في الدين باتفاق المسلمين فان هذا من جنس الاسرائيليات ونحوها التي لا يعلم صحتها الا بنقل ثابت عن النبي صلى الله

عليه وسلم وهذه لو نقلها مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وامثالهما ممن ينقل اخبار المبتدا وقصص المتقدمين عن أهل الكتاب لم يجز ان يحتج بها في دين المسلمين باتفاق المسلمين فكيف اذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين بل انما ينقلها عن من هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتج بحديثه واضطرب عليه فيها اضطرابا يعرف انه لم يحفظ ذلك ولم ينقل ذلك ولا ما يشبهه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمد على نقلهم وانما هي من جنس ما ينقله اسحاق بن بشر وامثاله في كتب المبتدا . وهذه لو كانت ثابتة عن الانبياء لكانت شرعا لهم وحينئذ فكان الاحتجاج بها مبنيا على ان شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا والنزاع في ذلك مشهور لكن الذي عليه الأئمة واكثر العلماء انه شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه وهذا انما هو فيما ثبت انه شرع قبلنا من نقل الثابت عن نبينا صلى الله عليه وسلم او بما تواتر عنهم لا بما يروى على هذا الوجه فان هذا لا يجوز أن يحتج به في شرع المسلمين أحد من المسلمين

ومن هذا الباب حديث ذكره موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير باسناده عن ابن عباس مرفوعا انه قال « من سره ان يوعيه الله حفظ القرآن وحفظ اصناف العلم فليكتب هذا الدعاء في اناء نظيف او في صحف قوارير بعسل وزعفران وماء مطر وليشربه على الريق وليصم ثلاثة ايام وليكن افطاره عليه ويدعو به في ادبار صلواته ـ اللهم اني اسئلك بانك مسؤول لم يسئل مثلك ولا يسئل واسألك بحق محمد نبيك وابراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى روحك وكلمتك

ووجيهك» وذكر تمام الدعاء. وموسى بن عبد الرحمن هذا من الكذابين، قال أبو أحمد بن عدي فيه منكر الحديث، وقال أبو حاتم ابن حبان دجال يضع الحديث وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتابا في التفسير جمعه من كلام الكلبي ومقاتل. ويروي نحو هذا دون الصوم عن ابن مسعود من طريق موسى ابن ابراهيم المروزي، حدثنا وكيع عن عبيدة عن شقيق عن ابن مسعود. وموسى بن ابراهيم هذا قال فيه، يحيى بن معين كذاب وقال الدارقطني متروك وقال ابن حبان كان مغفلا يلقن فيتلقن فاستحق الترك. ويروى هذا عن عمر بن عبد العزيز عن مجاهد بن جبير عن ابن مسعود بطريق أضعف من الاول، ورواه أبو الشيخ الاصبهاني من حديث أحمد بن اسحاق الجوهري، حدثنا أبو الاشعث، حدثنا زهير بن العلاء القيسي، حدثنا يوسف بن يزيد عن الزهري ورفع الحديث قال « من سره ان يحفظ فليصم سبعة أيام وليكن افطاره في آخر هذه الأيام السبعة على هؤلاء الكلمات »

قلت وهذه أسانيد مظلمة لا يثبت بها شيء وقد رواه أبو موسى المديني في أماليه وأبو عبد الله المقدسي على عادة أمثالهم في رواية ما يروى في الباب سواء كان صحيحا أو ضعيفا كما اعتاده أكثر المتأخرين من المحدثين انهم يروون ما روي به الفضائل ويجعلون العهدة في ذلك على الناقل كما هي عادة المصنفين في فضائل الاوقات والامكنة والاشخاص والعبادات والعادات كما يرويه أبو الشيخ الاصبهاني في فضائل الاعمال وغيره حيث يجمع أحاديث كثيرة لكثرة روايته، وفيها

أحاديث كثيرة قوية صحيحة وحسنة وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة وواهية وكذلك ما يرويه خيثمة بن سليمان في فضائل الصحابة وما يرويه أبو نعيم الاصبهاني في فضائل الخلفاء في كتاب مفرد وفي أول حلية الاولياء، وما يرويه أبو الليث السمرقندي وعبدالعزيز الكناني وأبو علي بن البناء وأمثالهم من الشيوخ، وما يرويه أبو بكر الخطيب وأبو الفضل بن ناصر وأبو موسى المديني وأبو القاسم بن عساكر والحافظ عبد الغني وأمثالهم ممن له معرفة بالحديث فانهم كثيراً ما يروون في تصانيفهم ما روي مطلقا على عادتهم الجارية ليعرف ماروي في ذلك الباب لا ليحتج بكل ماروي. وقد يتكلم أحدهم على الحديث ويقول غريب ومنكر وضعيف وقد لا يتكلم

وهذا بخلاف أئمة الحديث الذين يحتجون به ويبنون عليه دينهم مثل مالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجرّاح، والشافعي، وأحمد بن حنبل، واسحاق بن راهويه وعلي بن المديني، والبخاري، وأبي زرعة، وابي حاتم، وابي داود، ومحمد بن نصر المروزي، وابن خزيمة، وابن المنذر، وداوود بن علي، ومحمد بن جرير الطبري وغير هؤلاء، فان هؤلاء الذين يبنون الاحكام على الاحاديث يحتاجون أن يجتهدوا في معرفة صحيحها وضعيفها وتمييز رجالها

وكذلك الذين تكلموا في الحديث والرجال ليميزوا بين هذا وهذا لاجل معرفة الحديث كما يفعل ابو احمد بن عدي، وابو حاتم

البستي ، وابو الحسن الدارقطني ، وابو بكر الاسماعيلي . وكما قد يفعل ذلك ابو بكر البيهقي ، وابو اسماعيل الانصاري ، وابو القاسم الزنجاني ، وابو عمر بن عبد البر ، وابو محمد بن حزم وامثال هؤلاء ، فان بسط هذه الامور له موضع آخر . ولم نذكر من لا يروي باسناد مثل كتاب وسيلة المتعبدين لعمر الملاّ الموصلي وكتاب الفردوس لشهريار الديلمي وامثال ذلك فان هؤلاء دون هؤلاء الطبقات وفيما يذكرونه من الاكاذيب امر كبير

والمقصود هنا انه ليس في هذا الباب حديث واحد مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم يعتمد عليه في مسألة شرعية باتفاق أهل المعرفة بحديثه بل المروي في ذلك انما يعرف أهل المعرفة بالحديث انه من الموضوعات إما تعمدا من واضعه واما غلطا منه

وفي الباب آثار عن السلف اكثرها ضعيفة ، فمنها حديث الاربعة الذين اجتمعوا عند الكعبة وسألوا وهم عبد الله ومصعب ابني الزبير وعبدالله بن عمر وعبد الملك بن مروان ، ذكره بن أبي الدنيا في كتاب مجابي الدعاء ورواه من طريق اسماعيل بن أبان الغنوي عن سفيان الثوري عن طارق ابن عبد العزيز عن الشعبي انه قال «لقد رأيت عجبا كنا بفناء الكعبة أنا وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبدالملك بن مروان فقال القوم بعد ان فرغوا من حديثهم: ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليماني وليسأل الله حاجته فانه يعطى من سعة . ثم قالوا : قم ياعبدالله بن الزبير فانك أول مولود في الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال: اللهم انك عظيم ترجى لكل عظيم اسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة

نبيك ألاّ تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ويسلم علي بالخلافة ، ثم جاء فجلس . ثم قام مصعب فأخذ بالركن اليماني ثم قال: اللهم انك رب كل شيء واليك يصير كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء ألاّ تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني بسكينة بنت الحسين، ثم قام عبدالملك بن مروان فاخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم رب السموات السبع ورب الارض ذات النبت بعد القفر أسألك بما سألك به عبادك المطيعون لامرك وأسألك بحقك على خلقك وبحق الطائفين حول عرشك » الى آخره

قلت واسماعيل بن أبان الذي روى هذا عن سفيان الثوري كذاب، قال احمد بن حنبل كتبت عنه ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه ، وقال يحيى بن معين وضع حديثا على السابع من ولد العباس يلبس الخضرة يعني المأمون ، وقال البخاري ومسلم وابو زرعة والدارقطني متروك ، وقال الجوزجاني ظهر منه على الكذب ، وقال ابو حاتم كذاب وقال ابن حبان يضع على الثقات

وطارق بن عبدالعزيز الذي ذكر ان الثوري روى عنه لا يعرف من هو فان طارق بن عبدالعزيز المعروف الذي روى عنه ابن عجلان ليس من هذه الطبقة وقد خولف فيها فرواها أبو نعيم عن الطبراني، حدثنا احمد بن زيد بن الجريش، حدثنا ابو حاتم السجستاني، حدثنا الاصمعي قال حدثنا عبدالرحمن بن أبي الزناد عن ابيه قال « اجتمع في الحجر مصعب وعروة وعبدالله ابنا الزبير وعبدالله ابن عمر فقالوا تمنوا فقال عبدالله بن الزبير اما انا فاتمنى الخلافة، وقال عروة اما انا فأتمنى ان يؤخذ عني العلم ،وقال مصعب أما أنا فاتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينه بنت الحسين ، وقال عبدالله بن عمر أما أنا

فاتني المغفرة . قال فقالوا كلهم ما تمنوا ولعل ابن عمر قد غفر له »

قلت وهذا اسناد خير من ذاك الاسناد باتفاق أهل العلم وليس فيه سؤال بالمخلوقات، وفي الباب حكايات عن بعض الناس انه رأي مناما قيل له فيه ادع بكذا وكذا ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلا باتفاق العلماء وقد ذكر بعض هذه الحكايات من جمع في الادعية وروي في ذلك أثر عن بعض السلف، مثل ما رواه بن أبي الدنيا في كتاب مجابي الدعاء ، قال حدثنا ابو هاشم سمعت كثير بن محمد بن كثير بن رفاعة يقول «جاء رجل الى عبد الملك ابن سعيد بن ابجر فجس بطنه فقال بك داء لا يبرأ. قال ماهو؟ قال الدبيله» قال فتحول الرجل فقال الله الله الله ربي لا أشرك به شيئا اللهم إني اتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم تسليما يا محمد اني أتوجه بك الى ربك وربي يرحمني مما بي. قال فجس بطنه فقال قد برئت، ما بك علة»

* * *

قلت فهذا الدعاء ونحوه قد روي انه دعا به السلف ونقل عن احمد بن حنبل في منسك المروذي التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء ونهى به آخرون(؟) فان كان مقصود المتوسلين التوسل بالايمان به وبمحبته وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين وان كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع وماتنازعوا فيه يرد الى الله والرسول، وليس مجرد كون الدعاء حصل به المقصود ما يدل على انه سائغ في الشريعة فان كثيراً من الناس يدعون من دون الله من الكواكب والمخلوقين ويحصل ما يحصل من غرضه وبعض الناس يقصد الدعاء عند الاوثان والكنائس وغير ذلك ويدعو التماثيل التي في الكنائس ويحصل ما يحصل من غرضه وبعض الناس

يدعو بادعية محرمة باتفاق المسلمين ويحصل ما يحصل من غرضه فحصول الغرض ببعض الامور لا يستلزم اباحته وان كان الغرض مباحا فان ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها والا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد لكن لما كانت مفاسدها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها كما ان كثيراً من الامور كالعبادات والجهاد وانفاق الاموال قد تكون مضرّة لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع فهذا أصل يجب اعتباره ولا يجوز أن يكون الشيء واجباً أو مستحبا الا بدليل شرعي يقتضي ايجابه واستحبابه والعبادات لا تكون الا واجبة أو مستحبة فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة والدعاء لله تعالى عبادة ان كان المطلوب به أمراً مباحا

وفي الجملة فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به بخلاف دعاء الموتى والغائبين من الانبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى اليهم فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين

وحديث الاعمى الذي رواه الترمذي والنسائي هو من القسم الثاني من التوسل بدعائه فان الاعمى قد طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بان يرد الله عليه بصره فقال له « ان شئت صبرت وان شئت دعوت لك » فقال بل ادعه ، فأمره ان يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول « اللهم اني أسألك بنبيك نبي الرحمة يا محمد يا رسول الله اني

أتوجه بك الى ربي في حاجتي هذه ليقضيها اللهم فشفعه فيّ» فهذا توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا قال وشفعه فيّ فسأل الله ان يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه،

وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه المستجاب وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والابراء من العاهات فانه صلى الله عليه وسلم ببركة دعائه لهذا الاعمى أعاد الله عليه بصره

وهذا الحديث حديث الاعمى قد رواه المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره رواه البيهقي من حديث عثمان بن عمر عن شعبة عن أبي جعفر الخطمي قال سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان ابن حنيف ان رجلاضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله ان يعافيني فقال «ان شئت اخرت ذلك فهو خير لك وان شئت دعوت - قال فادعه، قال فأمره ان يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء - اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد اني أتوجه بك الى ربي في حاجتي هذه فيقضيها لي اللهم فشفعه فيّ وشفعني فيه قال فقام وقد أبصر» ومن هذا الطريق رواه الترمذي من حديث عثمان ابن عمر ومنها رواه النسائي وابن ماجه أيضا، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب لا يعرف الا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي هكذا وقع في الترمذي وسائر العلماء قالوا هو أبو جعفر الخطمي وهو الصواب، وأيضا فالترمذي ومن معه لم يستوعبوا لفظه كما استوعبه سائر العلماء بل رووه الى قوله «اللهم شفعه فيّ» قال الترمذي: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا

شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف ان رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله ان يعافيني قال «ان شئت صبرت فهو خير لك - قال فادعه ، قال فأمره ان يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء - اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد اني توجهت بك الى ربي في حاجتي هذه لتقضى اللهم شفعه فيّ » قال البيهقي رويناه في كتاب الدعوات باسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة قال ففعل الرجل فبرأ ، قال وكذلك رواه حماد عن سلمة عن أبي جعفر الخطمي

قلت ورواه الامام أحمد في مسنده عن روح بن عبادة كما ذكره البيهقي قال أحمد حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة عن أبي جعفر المدني سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف ان رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله ادع الله ان يعافيني قال «ان شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك وان شئت دعوت لك - قال لا بل ادع الله لي ، فأمره ان يتوضأ وان يصلي ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء - اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد اني أتوجه بك الى الله في حاجتي هذه فتقضى لي وتشفعني فيه وتشفعه فيّ» قال ففعل الرجل فبرأ ورواه البيهقي أيضا من حديث شبيب بن سعيد الحنظلي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المدني وهو الخطمي عن أبي امامة سهل بن حنيف عن عثمان بن حنيف قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل ضرير يشتكي اليه ذهاب بصره فقال يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ائت الميضأة فتوضأ ثم صلّ ركعتين ثم قل اللهم اني اسألك

واتوجه اليك بنبيك نبي الرحمة يا محمد اني اتوجه بك الى ربي فيجلي عن بصري اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي» قال عثمان بن حنيف والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كانه لم يكن به ضرّ قط

فرواية شبيب عن روح عن ابي جعفر الخطمي خالفت رواية شعبة وحماد ابن سلمة في الاسناد والمتن فان في تلك انه رواه ابو جعفر عن عمارة بن خزيمة وفي هذه انه رواه عن أبي أمامة سهل ، وفي تلك الرواية انه قال فشفعه في وشفعني فيه، وفي هذه وشفعني في نفسي . لكن هذا الاسناد له شاهد آخر من رواية هشام الدستوائي عن ابي جعفر

ورواه البيهقي من هذه الطريق وفيه قصة قد يحتج بها من توسل به بعد موته ان كانت صحيحة رواه من حديث اسماعيل بن شبيب بن سعيد الحنظلي عن شبيب ابن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبي أمامة سهل ابن حنيف أن رجلا كان يختلف الى عثمان بن عفان في حاجة له وكان عثمان لا يلتفت اليه ولا ينظر في حاجته فلقي الرجل عثمان بن حنيف فشكا اليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين ثم قل: اللهم اني اسئلك واتوجه اليك بنبينا محمد نبي الرحمة يا محمد اني اتوجه بك الى ربي فيقضي لي حاجتي . ثم اذكر حاجتك ثم رح حتى اروح. قال فانطلق الرجل فصنع ذلك ثم اتى بعدُ عثمان بن عفان فجاء البواب فاخذ بيده فادخله على عثمان فاجلسه معه على الطنفسة وقال: انظر ما كانت لك من حاجة . فذكر حاجته فقضاها له ثم ان الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت

اليّ حتى كلمته في. فقال عثمان بن حنيف ما كلمته ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وجاءه ضرير فشكا اليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اوتصبر[١] فقال له يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي فقال «ائت الميضأة فتوضأ وصل ركعتين ثم قل اللهم اني اسئلك واتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد اني اتوجه الى ربي فيجلي لي عن بصري اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي» قال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقنا وما طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كانه لم يكن به ضرّ قط قال البيهقي ورواه احمد بن شبيب بن سعيد عن ابيه بطوله وساقه من رواية يعقوب بن سفيان عن احمد بن شبيب بن سعيد. قال ورواه ايضاً هشام الدستوائي عن ابي جعفر عن ابي امامة بن سهل عن عمه وهو عثمان بن حنيف ولم يذكر اسناد هذه الطريق

قلت وقد رواه ابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة من هذه الطريق من حديث معاذ بن هشام عن ابيه عن ابي جعفر عن ابي امامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف ورواه ايضاً من حديث شعبة وحماد بن سلمة كلاهما عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة ولم يروه احد من هؤلاء للترمذي ولا النسائي ولا ابن ماجه من تلك الطريق الغريبة التي فيها الزيادة طريق شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم لكن رواه الحاكم في مستدركه من الطريقين فرواه من حديث عثمان بن عمر: حدثنا شعبة عن ابي جعفر المدني سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان بن حنيف ان رجلاً ضريراً اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله ان يعافيني فقال «ان شئت أخرت

(١) كذا في الاصل وقد علم من الروايات السابقة انه خيره بين الدعاء له والصبر

ذلك فهو خير لك وان شئت دعوت» قال فادعه فامره ان يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم اني اسألك واتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد اني توجهت بك الى ربي في حاجتي هذه اللهم فشفعه في وشفعني فيه. قال الحاكم على شرطهما. ثم رواه من طريق شبيب بن سعيد الحبطي وعون بن عمارة عن روح بن القاسم عن ابي جعفر الخطمي المدني عن ابي امامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وجاءه ضرير فشكا اليه ذهاب بصره وقال يا رسول الله ليس لي قائد وقدشق علي فقال «ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل اللهم انى اسئلك واتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد اني اتوجه بك الى ربي فيجلي لي عن بصري اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي» قال عثمان فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأن لم يكن به ضر قط. قال الحاكم على شرط البخاري.

وشبيب هذا صدوق روى له البخاري لكنه قد روي له عن روح بن الفرج احاديث مناكير رواها ابن وهب وقد ظن انه غلط عليه ولكن قد يقال مثل هذا اذا انفرد عن الثقات الذين هم احفظ منه مثل شعبة وحماد ابن سلمة وهشام الدستوائي بزيادة كان ذلك علة في الحديث لاسيما وفي هذه الرواية انه قال فشفعه في وشفعني في نفسي واولئك قالوا فشفعه في وشفعني فيه ومعنى قوله وشفعني فيه اي في دعائه وسؤاله لي فيطابق قوله وشفعه في. قال ابو احمد بن عدي في كتابه المسمى بالكامل في اسماء الرجال ولم يصنف في فنه مثله: شبيب بن سعيد الحبطي ابو سعيد البصري التميمي حدث عنه ابن وهب بالمناكير وحدث عن يونس عن الزهري بنسخة الزهري

احاديث مستقيمة وذكر عن علي بن المديني انه قال هو بصري ثقة كان من اصحاب يونس كان يختلف في تجارة الى مصر وجاء بكتاب صحيح قال وقد كتبها عن ابنه احمد بن شبيب وروى غن عدي حديثين عن ابن وهب عن شبيب هذا عن روح بن الفرج احدهما عن ابن عقيل عن سابق بن ناجية عن ابن سلام قال مر بنا رجل فقالوا ان هذا قد خدم النبي صلى الله عليه وسلم ، والثاني عنه عن روح بن الفرج عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة حديث دخول المسجد قال ابن عدي كذا قيل في الحديث عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عدي ولشبيب بن سعيد نسخة الزهري عنده عن يونس عن الزهري وهي أحاديث مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير وحدثني روح بن الفرج الذين أمليتها (١) يرويها ابن وهب عن شبيب وكان شبيب بن سعيد اذا روى عن ابنه (٢) أحمد بن شبيب نسخة الزهري ليس هو شبيب بن سعيد الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه ولعل شبيباً بمصر في تجارته اليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط بهم وارجو ان لا يتعمد شبيب هذا الكذب

قلت هذان الحديثان اللذان أنكرهما ابن عدي عليه رواهما عن روح ابن القاسم وكذلك هذا الحديث حديث الأعمى رواه عن روح بن

(١) هكذا وظاهر ان اصله «الحديثين اللذين أمليتهما» (٢) عبارة الذهبي في الميزان عن ابن عدي «فاذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر» قال الذهبي يعني يجود اه وذلك بعد ان قال ابن عدي عنه انه اذا حدث من حفظه لعله يغلط ويهم وفي سياق المصنف غلط آخر والآفة من النساخ وصححت البديهي منه

القاسم وهذا الحديث مما رواه عنه ابن وهب أيضا كما رواه عنه ابنه لكنه لم يتقن لفظه كما اتقنه ابناه وهذا يصحح ما ذكره ابن عدي فعلم انه محفوظ عنه وابن عدي أحال الغلط عليه لا على ابن وهب وهذا صحيح ان كان قد غلط واذا كان قد غلط على روح بن القاسم في ذينك الحديثين أمكن ان يكون غلط عليه في هذا الحديث ، وروح بن القاسم ثقة مشهور روى له الجماعة فلهذا لم يحيلوا الغلط عليه والرجل قد يكون حافظا لما يرويه عن شيخ غير حافظ لما يرويه عن آخر مثل اسماعيل بن عياش فيما يرويه عن الحجازيين فانه يغلط فيه بخلاف ما يرويه عن الشاميين ، ومثل سفيان بن حسين فيما يرويه عن الزهري ومثل هذا كثير ، فيحتمل ان يكون هذا يغلط فيما يرويه عن روح بن القاسم ان كان الأمر كما قاله ابن عدي وهذا محل نظر

وقد روى الطبراني هذا الحديث في المعجم من حديث ابن وهب عن شبيب ابن سعيد رواه من حديث أصبغ بن الفرج: حدثنا عبد الله بن وهب عن شبيب ابن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف ان رجلا كان يختلف الى عثمان بن عفان في حاجة له فلقي عثمان بن حنيف فشكا اليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: اللهم اني اسألك وأتوجه اليك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة يا محمد اني أتوجه بك الى ربك عز وجل فيقضي لي حاجتي. وتذكر حاجتك ورح حتى أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان بن عفان فاجلسه معه على الطنفسة وقال حاجتك فذكر

حاجته فقضاها له ثم قال له ما ذكرت حاجتك حتى كانت هـذه الساعة وقال ما كانت لك من حاجة فائتنا. ثم ان الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت اليّ حتى كلمته فيّ. فقال عثمان بن حنيف والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير فشكى اليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم افتصبر فقال يا رسول الله انه ليس لي قائد وقد شق علي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات فقال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرٌّ قط

قال الطبراني روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة قال أبو عبد الله المقدسي والحديث صحيح

قلت والطبراني ذكر تفرده بمبلغ علمه ولم يبلغه رواية روح ابن عبادة عن شعبة وذلك اسناد صحيح يبين انه لم ينفرد به عثمان ابن عمر وطريق ابن وهب هـذه تؤيد ماذكره ابن عدي فانه لم يحرر لفظ الرواية كما حررها ابناه بل ذكر فيها ان الاعمى دعا بمثل ماذكره عثمان بن حنيف ، وليس كذلك بل في حديث الاعمى انه قال اللهم فشفعه فيّ وشفعني فيه أو قال في نفسي وهذه لم يذكرها ابن وهب في روايته، فيشبه ان يكون حدث ابن وهب من حفظه كما قال ابن عدي فلم يتقن الرواية . وقد روى أبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه حديث حماد ابن سلمة فقال : حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا حماد بن سلمة انا أبو جعفر

الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف ان رجلا أعمى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اني أصبت في بصري فادع الله لي قال «اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيي محمد نبي الرحمة يا محمد اني أستشفع بك على ربي في رد بصري اللهم فشفعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري وان كانت حاجة فافعل مثل ذلك» فرد الله عليه بصره

قال ابن أبي خيثمة وأبو جعفر هذا الذي حدث عنه حماد بن سلمة اسمه عمير بن زيد وهو أبو جعفر الذي يروي عنه شعبة ثم ذكر الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة

قلت وهذه الطريق فيها فشفعني في نفسي مثل طريق روح بن القاسم وفيها زيادة أخرى وهي قوله وان كانت حاجة فافعل مثل ذلك أو قال فعل مثل ذلك وهذه قد يقال انها توافق قول عثمان بن حنيف لكن شعبة وروح بن القاسم أحفظ من حماد بن سلمة واختلاف الالفاظ تدل على ان مثل هذه الرواية قد تكون بالمعنى وقوله وان كانت حاجة فعل مثل ذلك قد يكون مدرجا من كلام عثمان لا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فانه لم يقل وان كانت لك حاجة فعلت مثل ذلك بل قال وان كانت حاجة فعل مثل ذلك

وبالجملة فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم تكن فيها حجة وانما غايتها ان يكون عثمان بن حنيف ظن ان الدعاء يدعى ببعضه دون بعض فانه لم يأمره بالدعاء المشروع بل ببعضه وظن ان هذا مشروع بعد موته صلى الله عليه وسلم ولفظ الحديث يناقض ذلك فان في الحديث ان الاعمى سأل النبي صلى الله عليه وسلم ان يدعو له وانه علم الاعمي ان يدعو

وأمره في الدعاء ان يقول اللهم فشفعه فيّ وانما يدعى بهذا الدعاء اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم داعياً شافعا له بخلاف من لم يكن كذلك فهذا يناسب شفاعته ودعاءه للناس في محياه في الدنيا ويوم القيامة اذا شفع لهم، وفيه أيضا انه قال وشفعني فيه وليس المراد ان يشفع للنبي صلى الله عليه وسلم في حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم وان كنا مأمورين بالصلاة والسلام عليه وأمرنا ان نسأل الله له الوسيلة، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال اذا سمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة» وفي مسلم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فان من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وارجو ان اكون انا ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة »

وسؤال الامة له الوسيلة هو دعاء له وهو معنى الشفاعة ولهذا كان الجزاء من جنس العمل فمن صلى عليه صلى عليه الله ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفع له صلى الله عليه وسلم كذلك الاعمى سأل منه الشفاعة فامره ان يدعو الله بقبول هذه الشفاعة وهو كالشفاعة في الشفاعة . فلهذا قال اللهم فشفعه فيّ وشفعني فيه، وذلك ان قبول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذا هو من كرامة الرسول على ربه ولهذا عدّ هذا من آياته ودلائل نبوته فهو كشفاعته يوم القيامة

في الخلق ، ولهذا امر طالب الدعاء ان يقول فشفعه فيّ وشفعني فيه بخلاف قوله وشفعني في نفسي فان هذا اللفظ لم يروه احد الا من هذا الطريق الغريب وقوله وشفعني فيه رواه عن شعبة رجلان جليلان عثمان بن عمر وروح بن عبادة وشعبة اجل من روى هذا الحديث ، ومن طريق عثمان ابن عمر عن شعبة ، رواه الثلاثة للترمذي والنسائي وابن ماجه : رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة ، ورواه ابن ماجه عن احمد بن سيار عن عثمان بن عمر وقد رواه احمد في المسند عن روح بن عبادة عن شعبة فكان هؤلاء احفظ للفظ الحديث مع ان قوله وشفعني في نفسي ان كان محفوظاً مثل ما ذكرناه وهو انه طلب ان يكون شفيعاً لنفسه مع دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ولو لم يدع له النبي صلى الله عليه وسلم كان سائلا مجردا كسائر السائلين ولا يسمى مثل هذا شفاعة وانما تكون الشفاعة اذا كان هناك اثنان يطلبان أمرا فيكون أحدهما شفيعا للآخر بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره

فهذه الزيادة فيها عدة علل : انفراد هذا بها عن من هو أكبر وأحفظ منه ، وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وان راويها عرف له عن روح هذا أحاديث منكرة ، ومثل هذا يقتضي حصول الريب والشك في كونها ثابتة فلا حجة فيها اذ الاعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه اذا كان اللفظ الذي رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه ومعلوم ان الواحد بعد موته اذا قال اللهم فشفعه فيّ وشفعني فيه مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع له كان هذا كلاما باطلا مع ان عثمان بن حنيف لم يأمره ان يسأل النبي صلى الله

عليه وسلم شيئا ولا ان يقول فشفعه فيّ ولم يأمره بالدعاء المأثور على وجهه وانما أمره ببعضه وليس هناك من النبي صلى الله عليه وسلم شفاعة ولا ما يظن انه شفاعة فلو قال بعد موته فشفعه فيّ لكان كلاما لا معنى له ولهذا لم يأمر به عثمان والدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر به والذي أمر به ليس مأثورا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ماينقل عن آحاد الصحابة في حسن العبادات أو الاباحات أو الايجابات أو التحريمات اذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليه وكان ما يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم يخالفه لا يوافقه لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها بل غايته ان يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد ومما تنازعت فيه الأمة فيجب رده الى الله والرسول

ولهذا نظائر كثيرة مثل ما كان عمر يدخل الماء في عينيه في الوضوء ويأخذ لأذنيه ماء جديدا وكان أبو هريرة يغسل يديه الى العضدين في الوضوء ويقول من استطاع ان يطيل غرته فليفعل ، وروي عنه انه كان يمسح عنقه ويقول هو موضوع الغل فان هذا وان استحبه طائفة من العلماء اتباعا لهما فقد خالفهم في ذلك آخرون وقالوا سائر الصحابة لم يكونوا يتوضؤن هكذا ، والوضوء الثابت عنه صلى الله عليه وسلم الذي في الصحيحين وغيرهما من غير وجه ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين ولا غسل ما زاد على المرفقين والكعبين ولا مسح العنق ولا قال النبي صلى الله عليه وسلم من استطاع ان يطيل غرته فليفعل بل هذا من كلام أبي هريرة جاء مدرجا في بعض الاحاديث وانما قال النبي صلى الله عليه وسلم « انكم تأتون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء » وكان صلى الله عليه وسلم يتوضأ حتى

يشرع في العضد والساق قال أبو هريرة من استطاع ان يطيل غرته فليفعل وظن من ظن ان غسل العضد من اطالة الغرة وهذا لا معنى له فان الغرة في الوجه لا في اليد والرجل وانما في اليد والرجل الحجلة . والغرة لا يمكن اطالتها فان الوجه يغسل كله لا يغسل الرأس ولا غرة في الرأس، والحجلة لا يستحب اطالتها واطالتها مثلة

وكذلك ابن عمر كان يتحرى ان يسير مواضع سير النبي صلى الله عليه وسلم وينزل مواضع منزله ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها ونحو ذلك مما استحبه طائفة من العلماء ورأوه مستحبا ولم يستحب ذلك جمهور العلماء كما لم يستحبه ولم يفعله أكابر الصحابة كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، ومعاذ بن جبل وغيرهم ، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر ولو رأوه مستحبا لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعته والاقتداء به

وذلك لان المتابعة ان يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل فاذا فعل فعلا على وجه العبادة شرع لنا ان نفعله على وجه العبادة واذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك كما كان يقصد ان يطوف حول الكعبة وان يلتمس الحجر الاسود وان يصلي خلف المقام وكان يتحرى الصلاة عند اسطوانة مسجد المدينة وقصد الصعود على الصفا والمروة والدعاء والذكر هناك وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما ، واما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده مثل ان ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزله لا قصدا لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه فاذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه او النزول لم نكن متبعين بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر

ابن الخطاب كما ثبت بالاسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعروف بن سويد قال كان عمر بن الخطاب في سفر فصلى الغداة ثم اتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم فقال عمر انما هلك اهل الكتاب انهم اتبعوا آثار انبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعا فمن عرضت له الصلاة فليصلّ والا فليمض. فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لانه موضع نزوله رأى عمر ان مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع اهل الكتاب التي هلكوا بها ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك ففاعل ذلك متشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم في الصورة ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب

وهذا هو الاصل فان المتابعة في السنة ابلغ من المتابعة في صورة العمل ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة هل فعلها استحبابا او لحاجة عارضة تنازعوا فيها وكذلك نزوله بالمحصب عند الخروج من منى لما اشتبه هل فعله لانه كان اسمح بخروجه اولكونه سنة تنازعوا في ذلك

ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمرو بن حريث بالكوفة فان هذا لما لم يفعله سائر الصحابة ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم شرعه لامته لم يمكن ان يقال هذا سنة مستحبة بل غايته ان يقال هذا مما ساغ فيه اجتهاد الصحابة او مما لا ينكر على فاعله لانه مما يسوغ فيه الاجتهاد لا لانه سنة مستحبة

سنها النبي صلى الله عليه وسلم لامته أو يقال في التعريف انه لا بأس به احيانا لعارض اذا لم يجعل سنة راتبة

وهكذا يقول ائمة العلم في هذا وامثاله تارة يكرهونه وتارة يسوغون فيه الاجتهاد وتارة يرخصون فيه اذا لم يتخذ سنة ولا يقول عالم بالسنة ان هذه سنة مشروعة للمسلمين فان ذلك انما يقال فيما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ ليس لغيره ان يسن ولا يشرع وما سنه خلفاؤه الراشدون فانما سنوه بامره فهو من سننه ولا يكون في الدين واجبا الا ما اوجبه ولا حراما الا ما حرمه ولا مستحبا الا ما استحبه ولا مكروها الا ما كرهه ولا مباحا الا ما اباحه

وهكذا في الاباحات كما استباح ابو طلحة اكل البرد وهو صائم واستباح حذيفة السحور بعد ظهور الضوء المنتشر حتى قيل هو النهار الا ان الشمس لم تطلع وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك فوجب الرد الى الكتاب والسنة

وكذلك الكراهة والتحريم مثل كراهة عمر وابنه الطيب قبل الطواف بالبيت وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج الى التمتع او التمتع مطلقا او رأى تقدير مسافة القصر بحد حده وانه لا يقصر بدون ذلك او رأى أنه ليس للمسافر ان يصوم في السفر ، ومن ذلك قول سلمان ان الريق نجس وقول ابن عمر ان الكتابية لا يجوز نكاحها وتوريث معاذ ومعاوية للمسلم من الكافر ومنع عمر وابن مسعود للجنب ان يتيمم وقول علي وزيد وابن عمر في المفوضة انه لا مهر لها اذا مات الزوج وقول علي وابن عباس في المتوفى عنها الحامل انها تعتد أبعد الاجلين وقول ابن عمر وغيره ان المحرم اذا مات بطل احرامه وفعل به ما يفعل بالحلال وقول

ابن عمر وغيره لا يجوز الاشتراط في الحج ، وقول ابن عباس وغيره في المتوفى عنها ليس عليها لزوم المنزل وقول عمر وابن مسعود ان المبتوتة لها السكنى والنفقة. وامثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة فانه يجب فيه الرد الى الله والرسول ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للامة الا ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن قال من العلماء ان قول الصحابي حجة فانما قاله اذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نص يخالفه ثم اذا اشتهر ولم ينكروه كان اقرارا على القول فقد يقال هذا اجماع اقراري اذا عرف انهم اقروه ولم ينكره احد منهم وهم لا يقرون على باطل واما اذا لم يشتهر فهذا ان عرف ان غيره لم يخالفه فقد يقال هو حجة واما اذا عرف انه خالفه فليس بحجة بالاتفاق ، واما اذا لم يعرف هل وافقه غيره او خالفه لم يجزم باحدهما ، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا فيما يخالفها بلا ريب عند أهل العلم

واذا كان كذلك فمعلوم انه اذا ثبت عن عثمان بن حنيف او غيره انه جعل من المشروع المستحب ان يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته من غير ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم داعيا له ولا شافعا فيه فقد علمنا ان عمر واكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعا بعد مماته كما كان يشرع في حياته بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسلون به فلما مات لم يتوسلوا به بل قال عمر في دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق اهل العلم بمحضر من المهاجرين والانصار في عام الرمادة المشهور لما اشتد بهم الجدب حتى حلف عمر لا يأكل سمنا حتى يخصب الناس ثم لما استسقى بالناس قال اللهم انا

كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون . وهذا دعاء اقره عليه جميع الصحابة لم ينكره احد مع شهرته وهو من اظهر الاجماعات الاقرارية ودعا بمثله معاوية بن ابي سفيان في خلافته لما استسقى بالناس فلو كان توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته كتوسلهم في حياته لقالوا كيف نتوسل بمثل العباس و يزيد ابن الاسود ونحوهما ونعدل عن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي هو افضل الخلائق وهو افضل الوسائل واعظمها عند الله فلما لم يقل ذلك احد منهم وقد علم انهم في حياته انما توسلوا بدعائه وشفاعته وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره علم ان المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته

وحديث الاعمى حجة لعمر وعامة الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين فانه انما امر الاعمى ان يتوسل الى الله بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه لا بذاته وقال له في الدعاء قل اللهم شفعه في واذا قدر ان بعض الصحابة امر غيره ان يتوسل بذاته لا بشفاعته ولم يأمر بالدعاء المشروع بل ببعضه وترك سائره المتضمن للتوسل بشفاعته كان ما فعله عمر بن الخطاب هو الموافق لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المخالف لعمر محجوجا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الحديث الذي رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم حجة عليه لا له والله أعلم ،

*
* *

وأما القسم الثالث مما يسمى توسلا فلا يقدر أحد ان ينقل فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئا يحتج به أهل العلم كما تقدم بسط الكلام

على ذلك وهو الاقسام على الله عزّ وجل بالانبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم فانه لا يقدر أحد ان ينقل فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئا ثابتا لا في الاقسام أو السؤال به ولا في الاقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين وان كان في العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء انه نهى عنه فتكون مسألة نزاع كما تقدم بيانه فيرد ما تنازعوا فيه الى الله ورسوله ويبدي كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع ، وليس هذا من مسائل العقوبات باجماع المسلمين بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم فان القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء والمنكر عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ، وقد ثبت انه لا يجوز القسم بغير الله لا بالانبياء ولا بغيرهم كما سبق بسط الكلام في تقرير ذلك وقد اتفق العلماء على انه لا يجوز لأحد ان ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغير نبي وان هذا النذر نذر شرك لا يوفى به وكذلك الحلف بالقرآن (؟) بالمخلوقات لا ينعقد به اليمين ولا كفارة فيه حتى لو حلف بالنبي صلى الله عليه وسلم لم ينعقد يمينه كما تقدم ذكره ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين بل نهى عن الحلف بهذه اليمين فاذا لم يجز ان يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله

وأما السؤال به من غير إقسام به فهذا أيضا مما منع منه غير واحد من العلماء والسنن الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين تدل على ذلك فان هذا انما يفعله من يفعله على انه قربة وطاعة وانه مما يستجاب به الدعاء وما كان من هذا النوع فاما ان يكون واجبا واما ان يكون مستحبا

وكل ما كان واجبا أو مستحبا في العبادات والأدعية فلا بد ان يشرعه النبي صلى الله عليه وسلم لامته فاذا لم يشرع هذا لامته لم يكن واجبا ولا مستحبا ولا يكون قربة وطاعة ولا سببا لاجابة الدعاء، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله فمن اعتقد ذلك في هذا أو في هذا فهو ضال وكانت بدعته من البدع السيئة ، وقد تبين بالاحاديث الصحيحة وما استقري من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ان هذا لم يكن مشروعا عندهم

وأيضا فقد تبين انه سؤال لله تعالى بسبب لا يناسب اجابة الدعاء وانه كالسؤال بالكعبة والطور والكرسي والمساجد وغير ذلك من المخلوقات ، ومعلوم ان سؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعا كما ان الاقسام بها ليس مشروعا بل هو منهي عنه فكما انه لا يسوغ لأحد ان يحلف بمخلوق فلا يحلف على الله بمخلوق ولا يسأله بنفس مخلوق وانما يسأل بالاسباب التي تناسب اجابة الدعاء كما تقدم تفصيله لكن قد روي في جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم ولكن ليس في المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء ثابت بل كلها موضوعة ، واما النقل عن من ليس قوله حجة فبعضه ثابت وبعضه ليس بثابت ، والحديث الذي رواه أحمد وابن ماجه وفيه «بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا» رواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من قال اذا خرج الى الصلاة: اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فاني لم أخرجه

اشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك ان تنقذني من النار وان تدخلني الجنة وان تغفر لي ذنوبي انه لا يغفر الذنوب الا انت. خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضي صلاته» وهذا الحديث هو من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد وهو ضعيف باجماع أهل العلم ، وقد روي من طريق آخر وهو ضعيف أيضا ، ولفظه لا حجة فيه فان حق السائلين عليه ان يجيبهم وحق العابدين ان يثيبهم وهو حق أحقه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم وبايجابه على نفسه في أحد أقوالهم وقد تقدم بسط الكلام على ذلك ، وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوه في الغار بأعمالهم فانه سأله هذا ببرّه العظيم لوالديه وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة لان هذه الاعمال أمر الله بها ووعد الجزاء لاصحابها ، فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار) وقال تعالى (انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين) ، وقال تعالى (قل ءانبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وازواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربنا اننا امنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) وكان ابن مسعود يقول في السحر اللهم دعوتني فاجبت وامرتني فاطعت وهذا سحر فاغفر لي ،

واصل هذا الباب ان يقال الاقسام على الله بشيء من المخلوقات والسؤال

له به اما ان يكون مأموراً به ايجابا او استحبابا او منهياعنه نهي تحريم او كراهة أو مباحا لا ماموراً به ولا منهياعنه واذا قيل ان ذلك مأمور به او مباح فاما ان يفرق بين مخلوق ومخلوق او يقال بل يشرع بالمخلوقات المعظمة او ببعضها فمن قال ان هذا مأمور به او مباح في المخلوقات جميعها لزم ان يسأل الله تعالى بشياطين الانس والجن فهذا لا يقوله مسلم فان قال بل يسأل بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التي اقسم بها في كتابه لزم من هذا ان يسأل بالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى والذكر والانثى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وما طحاها ونفس وما سواها — و يسأل الله تعالى ويقسم عليه بالخنس الجواري الكنس والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس و يسأل بالذاريات ذروا فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات امراً ويسأل بالطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ويسأل ويقسم عليه بالصافات صفا، وسائر ما اقسم به الله في كتابه فان الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لانها آياته ومخلوقاته فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته فهو سبحانه يقسم بها لان اقسامه بها تعظيم له سبحانه ونحن المخلوقات ليس لنا ان نقسم بها بالنص والاجماع بل ذكر غير واحد الاجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك بل ذلك شرك منهي عنه ومن سأل الله بها لزمه ان يسأله بكل ذكر وانثى وبكل نفس ألهمها فجورها وتقواها و يسأله بالرياح والسحاب والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار والتين والزيتون وطور سنين ويسأله بالبلد الامين

مكة و يسأله حينئذ بالبيت والصفا والمروة وعرفه ومزدلفة ومنى وغير ذلك من المخلوقات ويلزم ذلك أن يسأله بالمخلوقات التي عبدت من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والملائكة والمسيح والعزير وغير ذلك مما عبد من دون الله ومما لم يعبد من دونه

ومعلوم ان السؤال لله بهذه المخلوقات او الاقسام عليه بها من اعظم البدع المنكرة في دين الاسلام وما يظهر قبحه للخاص والعام ويلزم من ذلك ان يقسم على الله تعالى بالاقسام والعزائم التي تكتب في الحروز الهياكل التي تكتبها الطرقية والمعزمون بل و يقال اذا جاز السؤال والاقسام على الله بها فعلى المخلوقات اولى فحينئذ فتكون العزائم والاقسام التي يقسم بها على الجن مشروعة في دين الاسلام وهذا الكلام يستلزم الكفر والخروج من الاسلام بل ومن دين الانبياء اجمعين،

وان قال قائل بل انا اسأله او اقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات إما الانبياء دون غيرهم او نبي دون غيره كما جوّز بعضهم الحلف بذلك او بالانبياء والصالحين دون غيرهم ، قيل له بعض المخلوقات وان كان افضل من بعض فكلها مشتركه في انه لا يجعل شيء منها ندا لله تعالى فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب اليه ولا يقسم بمخلوق كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من كان حالفا فليحلف بالله او ليصمت» وقال «لا تحلفوا الا بالله» وفي السنن عنه انه قال «من حلف بغير الله فقد اشرك» فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات لا فرق في ذلك بين الملائكة والانبياء

والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي

وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها وان كانت معظمة قال تعالى (ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ايأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون) وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذوراً) قالت طائفة من السلف كان اقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة فقال تعالى هؤلاء الذين تدعونهم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ويتقربون الي كما تتقربون اليّ ، وقد قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) فبين ان الطاعة لله والرسول فانه من يطع الرسول فقد أطاع الله وبين ان الخشية والتقوى لله وحده فلم يأمر ان يخشى مخلوق ولا يتقى مخلوق

وقال تعالى (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) وقال تعالى (فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب) ، فبين سبحانه وتعالى انه كان ينبغي لهؤلاء ان يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ويقولوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون ، فذكر الرضاء بما آتاه الله ورسوله لان الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ووعده ووعيده فالحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين

ما شرعه الله ورسوله ولهذا قال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فليس لاحد ان يأخذ من الاموال الا ما أحله الله ورسوله والاموال المشتركة له كمال الفيء والغنيمة والصدقات عليه ان يرضى بما آتاه الله ورسوله منها وهو مقدار حقه لا يطلب زيادة على ذلك، ثم قال تعالى (وقالوا حسبنا الله) ولم يقل ورسوله فان الحسب هو الكافي والله وحده كاف عباده المؤمنين كما قال تعالى (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أي هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين. هذا هو القول الصواب الذي قاله جمهور السلف والخلف كما بين في موضع آخر والمراد ان الله كاف للرسول ولمن اتبعه فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه ثم قال تعالى (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) فذكر الايتاء لله ورسوله لكن وسطه بذكر الفضل فان الفضل لله وحده بقوله سيؤتينا الله من فضله ورسوله، ثم قال تعالى (انا الى الله راغبون) فجعل الرغبة الى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات

فقد تبين ان الله سوّى بين المخلوقات في هذه الاحكام لم يجعل لأحد من المخلوقين سواء كان نبياً أو ملكاً ان يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يُرْغَبَ اليه ولا يخشى ولا يتقى،

وقال تعالى (قل ادعو االذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) فقد تهدد سبحانه شيئاً[1] من دون الله وبين

(١) لا بد ان يكون اصل الكلام فقد تهدد سبحانه من طلب شيئاً من دون الله او نحو ذلك

انهم لا ملك لهم مع الله ولا شركا في ملكه وانه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ولم يبق الا الشفاعة وهي حق لكن قال الله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) وهكذا دلت الاحاديث الصحيحة في الشفاعة يوم القيامة اذا أتى الناس آدم وأولي العزم نوحا وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم فيردهم كل واحد الى الذي بعده الى ان يأتوا المسيح فيقول لهم اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال صلى الله عليه وسلم «فيأتوني فاذهب الى ربي فاذا رأيته خررت ساجداً وأحمد ربي بمحامد يفتحها عليّ لا أحسنها الآن فيقال لي أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع قال فيحد لي حد فأدخلهم الجنة» وذكر تمام الخبر ، فبين المسيح ان محمداً هو الشافع المشفع لانه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وبين محمد عبد الله ورسوله أفضل الخلق وأوجه الشفعاء وأكرمهم على الله تعالى انه يأتي فيسجد ويحمد لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له فيقال له ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع وذكر ان ربه يحد له حداً فيدخلهم الجنة . وهذا كله يبين ان الامر كله لله هو الذي يلزم الشفيع بالاذن له في الشفاعة والشفيع لا يشفع الا فيمن يأذن (؟) ثم يحد للشفيع حداً فيدخلهم الجنة ، فالامر بمشيئته وقدرته واختياره وأوجه الشفعاء وأفضلهم هو عنده الذي فضله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وانابته وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه

واذا كان الاقسام بغير الله والرغبة اليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك هي من الاحكام التي اشتركت المخلوقات فيها فليس لمخلوق ان يقسم به ولا يتقى ولا

يتوكل عليه وان كان أفضل المخلوقات ولا يستحق ذلك أحد من الملائكة والنبيين فضلا عن غيرهم من المشايخ والصالحين

فالسؤال لله تعالى بالمخلوقات ان كان بما اقسم به وعظمه من المخلوقات فيسوغ السؤال بذلك كله [1] وان لم يك سائغا لم يجز ان يسأل بشيء من ذلك والتفريق في ذلك بين معظم ومعظم كتفريق من فرق يجوز الحلف ببعض المخلوقات دون بعض وكما ان هذا فرق باطل فكذلك الآخر. ولو فرق مفرق بين ما يؤمن به وبين ما لا يؤمن به قيل له فيجب الايمان بالملائكة والنبيين ويؤمن بكل ما اخبره الرسول مثل منكر ونكير والحور العين والولدان وغير ذلك افيجوز ان يقسم بهذه المخلوقات لكونه يجب الايمان بها ام يجوز السؤال بها كذلك

فتبين ان السؤال بالاسباب اذا لم يكن المسئول به سببا لاجابة الدعاء فلا فرق بين السؤال بمخلوق ومخلوق كما لا فرق بين القسم بمخلوق ومخلوق وكل ذلك غير جائز فتبين انه لا يجوز ذلك كما قاله من قاله من العلماء والله اعلم

واما قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) فكانت اليهود تقول للمشركين سوف يبعث هذا النبي ونقاتلكم معه فنقتلكم لم يكونوا يقسمون على الله بذاته ولا يسألون به او [2] يقولون اللهم ابعث هذا النبي الامي لنتبعه ونقتل هؤلاء معه. هذا هو النقل الثابت

---

(١) الجملة من هنا الى قوله فتبين فيها عسلطة واضطراب فلا شك ان فيها تحريفاً وغلطاً وانه سقط منها بعض الكلم

(٢) لعل الصواب « بل يقولون » وسيأتي ما يؤيده

عند اهل التفسير وعليه يدل القرآن فانه قال تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون) والاستفتاح الاستنصار وهو طلب الفتح والنصر فطلب الفتح والنصر به هو ان يبعث فيقاتلونهم معه فبهذا ينصرون ليس هو باقسامهم به وسؤالهم به اذ لو كان كذلك لكانوا اذا سألوا او قسموا به نصروا ولم يكن الامر كذلك بل لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم نصر الله من آمن به وجاهد معه على من خالفه

وما ذكره بعض المفسرين من انهم كانوا يقسمون به او يسألون به فهو نقل شاذ مخالف للنقول الكثيرة المستفيضة المخالفة له وقد ذكرنا طرفا من ذلك في دلائل النبوة وفي كتاب الاستغاثة الكبير وكتب السيرة ودلائل النبوة والتفسير مشحونة بذلك . قال ابو العالية وغيره كان اليهود اذا استنصروا بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يقولون اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نغلب المشركين ونقتلهم فلما بعث الله محمداً ورأوا انه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون انه رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى هذه الآيات (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)

وروى محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الانصاري عن رجال من قومه قالوا مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله وهداه ما كنا نسمع من رجال يهود وكنا اهل شرك واصحاب اوثان وكانوا اهل كتاب عندهم علم ليس عندنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد

وإرم. كثيرا ما كنا نسمع ذلك منهم فلما بعث الله محمدا رسولا من عند الله اجبناه حين دعانا الى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم اليه فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات التي في البقرة (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)

ولم يذكر ابن ابي حاتم وغيره ممن جمع كلام مفسري السلف الا هذا وهذا لم يذكر فيه السؤال به عن احد من السلف بل ذكروا الاخبار به او سؤال الله ان يبعثه فروى ابن ابي حاتم عن ابي رزين عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال يستظهرون يقولون نحن نعين محمدا عليهم وليسوا كذلك يكذبون ه وروي عن معمر عن قتادة في قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال كانوا يقولون انه سيأتي نبي (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) وروى باسناده عن ابن اسحاق ، حدثنا محمد بن ابي محمد قال اخبرني عكرمة او سعيد ابن جبير عن ابن عباس ان يهود كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه فقال لهم معاذ بن جبل و بشر بن البراء ابن معرور وداوود بن سلمة يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن اهل شرك وتخبرونا بانه مبعوث وتصفونه بصفته. فقال سلام ابن مشكم اخو بني النضير ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم فانزل الله تعالى من قولهم (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين

كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وروى باسناده عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال كانت اليهود تستنصر بمحمد الله صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يقولون اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدا ورأوا انه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب وهم يعلمون انه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)

واما الحديث الذي روى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكل ما التقوا هزمت يهود فعاذت بهذا الدعاء اللهم انا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا ان تخرجه لنا آخر الزمان الا نصرتنا عليهم . فكانوا اذا دعو بهذا الدعاء هزموا غطفان فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به فأنزل الله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه وقال أدّت الضرورة الى اخراجه وهذا مما أنكره عليه العلماء فان عبدالملك بن هارون من أضعف الناس وهو عند أهل العلم بالرجال متروك بل كذاب وقد تقدم ماذكره يحيي بن معين وغيره من الأئمة في حقه ،

قلت وهذا الحديث من جملتها وكذلك الحديث الآخر الذي يرويه عن أبي بكر كما تقدم ، ومما يبين ذلك ان قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) انما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في

اليهود المجاورين للمدينة أولا كبني قينقاع وقريظة والنضير وهم الذين كانوا يحالفون الاوس والخزرج وهم الذين عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ثم لما نقضوا العهد حاربهم فحارب أولا بني قينقاع ثم النضير — وفيهم نزلت سورة الحشر — ثم قريظة عام الخندق فكيف يقال نزلت في يهود خيبر وغطفان فان هذا من كذب جاهل لم يحسن كيف يكذب، ومما يبين ذلك انه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب ولو كان هذا مما وقع لكان مما تتوفر دواعي الصادقين على نقله،

ومما ينبغي ان يعلم ان مثل هذا اللفظ لو كان مما يقتضي السؤال به والاقسام به على الله تعالى لم يكن مثل هذا مما يجوز ان يعتمد عليه في الاحكام لانه أولا لم يثبت وليس في الآية ما يدل عليه ولو ثبت لم يلزم ان يكون هذا شرعا لنا فان الله تعالى قد أخبر عن سجود أخوة يوسف وأبويه وأخبر عن الذين غلبوا على اهل الكهف انهم قالو (لنتخذنّ عليهم مسجدا) ونحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور، ولفظ الآية انما فيه انهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وهذا كقوله تعالى (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) والاستفتاح طلب الفتح وهو النصر، ومنه الحديث المأثور ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بهم أي بدعائهم كما قال « وهل ترزقون وتنصرون الا بضعفائكم بصلاتهم ودعائهم واخلاصهم » وهذا قد يكون بأن يطلبوا من الله تعالى ان ينصرهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان بان يعجل بعث ذلك النبي اليهم لينتصروا به عليهم لا لانهم

اقسموا على الله وسألوا به ، ولهذا قال تعالى (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) فلو لم ترد الآثار التي تدل على ان هذا معنى الآية لم يجز لاحد ان يحمل الآية على ذلك المعنى المتنازع فيه بلا دليل لانه لا دلالة فيها عليه فكيف وقد جاءت الآثار بذلك ،

واما ماتقدم ذكره عن اليهود من انهم كانوا ينصرون فقد بينا انه شاذ وليس هو من الآثار المروفة في هذا الباب فان اليهود لم يعرف انها غلبت العرب بل كانوا مغلوبين معهم وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقا كما كانت قريظة حلفاء الاوس وكانت النضير حلفاء الخزرج ، واما كون اليهود كانوا ينتصرون على العرب فهذا لا يعرف بل المعروف خلافه والله تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك فقال تعالى (ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فاليهود من حيث ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم وانما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الاسلام والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه قال تعالى (ياعيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من انصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا

ظاهرين) وكانوا قد قتلوا يحيي بن زكريا وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى (وضربت عليهم المسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فاذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد موته يقسمون بذاته بل انما كانوا يتوسلون بطاعته أو بشفاعته فكيف يقال في دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الانبياء والملائكة وغيرهم

وقد قال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ،) قالت طائفة من السلف كان اقوام يدعون الملائكة والانبياء كالمسيح وعزير وغيرهما فنهى الله عن ذلك واخبر تعالى ان هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون اليه وانهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله عنهم . وقد قال تعالى (ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم ان يتخذ قبره مسجدا وان يتخذ عيدا وقال في مرض موته « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا ، أخرجاه في الصحيحين وقال « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه مالك في موطاه وقال «لا تطروني كما
اطرت النصارى عيسى بن مريم انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »
متفق عليه وقال « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد بل ما شاء الله ثم شاء
محمد » وقال له بعض الاعراب ما شاء الله وشئت فقال « أجعلتني لله ندا
بل ما شاء الله وحده » وقد قال الله تعالى له (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا
ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما
مسني السوء) وقال تعالى (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا) وقال تعالى
(انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقال تعالى
(ليس لك من الامر شيء) وهذا تحقيق التوحيد مع انه صلى الله
عليه وسلم اكرم الخلق على الله واعلام منزلة عند الله

وقد روي الطبراني في معجمه الكبير ان منافقا كان يؤذي
المؤمنين فقال ابو بكر قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «انه لا يستغاث بي وانما يستغاث بالله»
وفي صحيح مسلم في آخره انه قال قبل ان يموت بخمس « ان من كان
قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني انهاكم
عن ذلك » وفي صحيح مسلم ايضا وغيره انه قال « لا تجلسوا على القبور ولا
تصلوا اليها » وفي الصحيحين من حديث ابي سعيد وابي هريرة وله طرق
متعددة عن غيرهما انه قال «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدي
هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى ، وسئل مالك عن رجل نذر ان
يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال مالك ان كان اراد القبر فلا يأته

وان اراد المسجد فليأته ثم ذكر الحديث «لا تشد الرجال الا الى ثلاثة مساجد» ذكره القاضي اسماعيل في مبسوطه

ولو حلف حالف بحق المخلوقين لم ينعقد يمينه ولا فرق في ذلك بين الانبياء والملائكة وغيرهم ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه احد لا الانبياء ولا غيرهم وللانبياء حق وللمؤمنين حق ولبعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى ان يعبدوه ولا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ومن عبادته تعالى ان يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا اليه ولا يجعلوا لله ندا لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الاستعانة به كما في الصحيحين انه قال صلى الله عليه وسلم «من مات وهو يدعو نداً من دون الله دخل النار» وسئل اي الذنب اعظم قال «ان تجعل لله نداً وهو خلقك» وقيل له ماشاء الله وشئت فقال «اجعلتني لله ندا بل ماشاء الله وحده» وقد قال تعالى (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال تعالى (فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون* وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياي فارهبون * فاياي فاعبدون) وقال تعالى (فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب) وقال تعالى في فاتحة الكتاب التي هي ام القرآن (اياك نعبد واياك نستعين) وقال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين امنوا اشد حبا لله) وقال تعالى (فلا تخشوا الناس واخشوني) وقال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله)

ولهذا لما كان المشركون يخوفون ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه قال تعالى (وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ماتشركون به الا ان يشاء ربي شيئا وسع ربي كل

شيء علما أفلا تتذكرون* وكيف أخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون* الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم «انما ذاك الشرك كما قال العبد الصالح يابني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم» وقال تعالى (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) فجعل الطاعة لله والرسول فانه من يطع الرسول فقد أطاع الله وجعل الخشية والتقوى لله وحده فلا يخشى الا الله ولا يتقى الا الله وقال تعالى (فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) وقال تعالى (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) وقال تعالى (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) فجعل سبحانه الايتاء لله والرسول في أول الكلام وآخره كقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) مع جعله الفضل لله وحده والرغبة الى الله وحده وهو تعالى وحده حسبهم لاشريك له في ذلك. وروى البخاري عن ابن عباس في قوله (حسبنا الله ونعم الوكيل) قال قالها ابراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين (قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)

وقال تعالى (ياأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

ومعنى ذلك عند جماهير السلف والخلف ان الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين كما بسط ذلك بالادلة وذلك ان الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله في أمره ونهيه ووعده ووعيده فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله، فعلينا ان نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضي الله ورسوله قال تعالى (والله ورسوله احق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين) وقال تعالى (اطيعوا الله واطيعوا الرسول) وقال تعالى (من يطع الرسول فقد اطاع الله) وقال تعالى (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره) وفي الصحيحين عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره ان يرجع في الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار » وقد قال تعالى (إنّا ارسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة واصيلا) فالايمان بالله والرسول والتعزير والتوقير للرسول وتعزيره نصره ومنعه والتسبيح بكرة واصيلا لله وحده فان ذلك من العبادة لله والعبادة هي لله وحده فلا يصلى الا لله ولا يصام الا لله ولا يحج الا الى بيت الله ولا تشد الرجال الا الى المساجد الثلاثة لكون هذه المساجد بناها انبياء الله باذن الله ولا ينذر الا لله ولا يحلف الا بالله ولا يدعى الا الله ولا يستغاث الا بالله

واما ما خلقه الله سبحانه من الحيوان والنبات والمطر والسحاب وسائر المخلوقات فلم يجعل غيره من العباد واسطة في ذلك الخلق كما جعل الرسل واسطة في التبليغ بل يخلق ما يشاء بما يشاء من الاسباب وليس في المخلوقات شيء يستقل بإبداع شيء بل لا بد للسبب من اسباب اخر تعاونه ولا بد من رفع المعارض عنه وذلك لا يقدر عليه الا الله وحده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن بخلاف الرسالة فان الرسول وحده كان واسطة في تبليغ رسالته الى عباده

واما جعل الهدى في قلوب العباد فهو الى الله تعالى لا الى الرسول كما قال الله تعالى (انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقال تعالى (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل) وكذلك دعاء الانبياء عليهم الصلاة والسلام واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع اذا جعل الله تعالى المحل قابلا له والا فلو استغفر النبي للكفار والمنافقين لم يغفر لهم قال الله تعالى (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم)

والرسل فقد تبين انهم هم الوسائط بيننا وبين الله عز وجل في أمره ونهيه ووعده ووعيده وخبره فعلينا ان نصدقهم في كل ما أخبروا به ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا وعلينا ان نصدق بجميع أنبياء الله عز وجل لا نفرق بين أحد منهم ومن سب واحدا منهم كان كافرا مرتدا مباح الدم واذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بينا ان الانبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ولا يقسم على الله

بهم ولا يتوسل بذواتهم وانما يتوسل بالايمان بهم وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم وتعزيرهم وتوقيرهم ومعاداة من عاداهم وطاعتهم فيما أمروا وتصديقهم فيما أخبروا وتحليل ما حللوه وتحريم ما حرموه

والتوسل بذلك على وجهين أحدهما ان يتوسل بذلك الى اجابة الدعاء واعطاء السؤل لحديث الثلاثة الذين أووا الى الغار فانهم توسلوا باعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربتهم وقد تقدم بيان ذلك ، والثاني التوسل بذلك الى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه فان الاعمال الصالحة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم هي الوسيلة التامة الى سعادة الدنيا والآخرة ومثل هذا كقول المؤمنين (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار) فانهم قدموا ذكر الايمان قبل الدعاء ، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين في قوله تعالى (انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين) وأمثال ذلك كثير ،

وكذلك التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته فانه يكون على وجهين أحدهما ان يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع كما كان يطلب منه في حياته وكما يطلب منه يوم القيامة حين يأتون آدم ونوحا ثم الخليل ثم موسى الكليم ثم عيسى ثم يأتون محمداً صلوات الله وسلامه عليهم وسلامة فيطلبون منه الشفاعة ، والوجه الثاني ان يكون التوسل مع ذلك بسأل[1] الله تعالى بشفاعته ودعائه كما في حديث الاعمى المتقدم بيانه وذكره فانه طلب منه الدعاء والشفاعة فدعا له الرسول وشفع فيه وأمره ان يدعو الله فيقول

---

(١) لعل أصله « بأن يسئل »

اللهم اني أسئلك وأتوجه اليك به اللهم فشفعه فيّ فأمره ان يسأل الله تعالى قبول شفاعته بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه فهذا توسل بما لم يوجد وانما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه . ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقت الاستسقاء كما تقدم فان عمر والمسلمين توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس فانهم استشفعوا جميعا ولم يكن العباس وحده هو الذي دعا لهم . فصار التوسل بطاعته والتوسل بشفاعته كلٌ منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله ولا يكون بدون ذلك . فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة لا ينازع في واحد منها أحد من أهل العلم والايمان

ودين الاسلام مبني على أصلين وهما تحقيق شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وأول ذلك ان لا تجعل مع الله الها آخر فلا تحب مخلوقا كما تحب الله ولا ترجوه كما ترجو الله ولا تخشاه كما تخشى الله ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله وهو من الذين بربهم يعدلون [١] وقد جعل مع الله الها آخر وان كان مع ذلك يعتقد ان الله وحده خالق السموات والارض فان مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والارض كما قال تعالى { ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله } وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى قال تعالى (ائنكم لتشهدون ان مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد) وقال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله) فصاروا مشركين

---

(١) يشير المصنف الى قوله تعالى « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » اي يجعلون له عدلا وهو بكسر العين المعادل والنظير

لأنهم احبوهم كحبه لأنهم قالوا ان آلهتهم خلقوا كخلقه كما قال تعالى «أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) وهذا استفهام انكار بمعنى النفي أي ماجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فانهم مقرون ان آلهتهم لم يخلقوا كخلقه وانما يجعلونهم شفعاء ووسائط قال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال صاحب يس (وما لي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون * ءأتخذ من دونه آلهة ان يردني الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * اني اذاً لفي ضلال مبين * اني آمنت بربكم فاسمعون)

الاصل الثاني ان نعبده بما شرع على ألسنة رسله لا نعبده الا بواجب أو مستحب والمباح اذا قصد به الطاعة دخل في ذلك والدعاء من جملة العبادات فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم مع ان هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر ايجاب ولا استحباب كان مبتدعا في الدين مشركا برب العالمين متبعا غير سبيل المؤمنين ومن سأل الله تعالى بالمخلوقين أو أقسم عليه بالمخلوقين كان مبتدعا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، فان ذمّ من خالفه وسعى في عقوبته كان ظالما جاهلا معتديا وان حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله وكان حكمه منقوضا باجماع المسلمين وكان الى ان يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوج منه الى ان ينفذ له هذا الحكم ويعان عليه وهذا كله مجمع عليه من المسلمين ليس فيه خلاف لا بين الأئمة الاربعة ولا غيرهم

وقد بسط الكلام على هذه الامور في مجلدات من جملتها مصنف

ذكرنا فيه قواعد تتعلق بحكم الحكام وما يجوز لهم الحكم فيه وما لا يجوز وهو مؤلف مفرد يتعلق بأحكام هذا الباب لا يحسن ايراد شيء من فصوله هاهنا لافراد الكلام في هذا الموضع على قواعد التوحيد ومتعلقاته ، وسيأتي ايراد ما اختصر منه وحررت فصوله في ضمن أوراق مفردة يقف عليها المتأمل لمزيد الفائدة ومسيس الحاجة الى معرفة هذا الامر المهم وبالله التوفيق

وكنت وأنا بالديار المصرية في سنة احدى عشرة وسبع مائة قد استفتيت عن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فكتبت في ذلك جوابا مبسوطا وقد أحببت ايراده هنا لما في ذلك من مزيد الفائدة فان هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو كلما تنوع بيانها ووضحت عبارتها كان ذلك نوراً على نور والله المستعان ،

(وصورة السؤال): المسؤول من السادة العلماء أئمة الدين ان يبينوا ما يجوز وما لا يجوز من الاستشفاع والتوسل بالانبياء والصالحين

(وصورة الجواب): الحمد لله رب العالمين اجمع المسلمون على ان النبي صلى الله عليه وسلم يشفع للخلق يوم القيامة بعد ان يسأله الناس ذلك وبعد ان يأذن الله له في الشفاعة ثم ان أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنن من انه صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الكبائر من أمته ويشفع أيضا لعموم الخلق فله صلى الله عليه وسلم شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد وشفاعات يشركه فيها غيره من الانبياء والصالحين لكن ماله فيها أفضل مما لغيره فانه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عزّ وجل وله

من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين ما يضيق هـذا الموضع عن بسطه ومن ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة منها في الصحيحين أحاديث متعددة ، وفي السنن والمساند مما يكثر عدده

واما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا ان الشفاعة انما هي للمؤمنين خاصة في رفع الدرجات وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقا

واجمعوا على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به في حياته بحضرته كما ثبت في صحيح البخاري عن انس بن مالك ان عمر بن الخطاب كان اذا قحطوا : استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال اللهم انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون وفي البخاري ايضا عن ابن عمر انه قال ربما ذكرت قول الشاعر وانا انظر الى وجه النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل

والتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي ذكره عمر بن الخطاب قد جاء مفسراً في سائر احاديث الاستسقاء وهو من جنس الاستشفاع به وهو ان يطلب منه الدعاء والشفاعة ويطلب من الله ان يقبل دعاءه وشفاعته ونحن نقدمه بين ايدينا شافعا وسائلا لنا بابي هو وامي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك معاوية بن ابي سفيان لما اجدب الناس بالشام استسقى بيزيد بن الاسود الجرشي فقال : اللهم انا نستشفع او نتوسل بخيارنا ، يايزيد ارفع يديك . فرفع يديه ودعا ودعا الناس حتى سقوا ولهذا قال العلماء يستحب

ان يستسقى باهل الدين والصلاح واذا كانوا من اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو احسن

وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه فانه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه كما ان المسلمين لما أجدبوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه اعرابي فقال يارسول الله هلكت الاموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال « اللهم اغثنا اللهم اغثنا اللهم اغثنا » وما في السماء قزعة فنشأت سحابة من جهة البحر فمطروا اسبوعا لا يرون فيه الشمس حتى دخل عليهم الاعرابي او غيره فقال يا رسول الله انقطعت السبل وتهدم البنيان فادع الله يكشفها عنا فرفع يديه وقال « اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الاكام والظراب ومنابت الشجر وبطون الاودية » فانجابت المدينة كما ينجاب الثوب والحديث مشهور في الصحيحين وغيرهما وفي حديث آخر في سنن ابي داوود وغيره ان رجلا قال له انا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رؤي ذلك في وجوه اصحابه وقال « ويحك اتدري ما الله؟ إن الله لا يستشفع به على احد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص في كلام النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه هو الاستشفاع بدعائه وشفاعته ليس هو السؤال بذاته فانه لو كان هذا السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى اولى من سؤال الله بالخلق ولكن لما كان معناه هو الاول انكر النبي صلى الله علية وسلم قوله فنستشفع

بالله عليك ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله لان الشفيع يسأل المشفوع اليه ان يقضي حاجة الطالب والله تعالى لا يسأل أحدا من عباده ان يقضي حوائج خلقه وان كان بعض الشعراء ذكر استشفاعه بالله تعالى في مثل قوله

شفيعي اليك الله لا رب غيره وليس الى رد الشفيع سبيل

وكذلك بعض الاتحادية ذكر انه استشفع بالله سبحانه الى النبي صلى الله عليه وسلم وكلاهما خطأ وضلال بل هو سبحانه المسئول المدعو الذي يسأله كل من في السموات والارض ولكن هو تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فانما وجبت لان ذلك طاعة لله تعالى فالرسل يبلغون عن الله أمره فمن أطاعهم فقد أطاع الله ومن بايعهم فقد بايع الله قال تعالى (وما أرسلناك من رسول الا ليطاع باذن الله) وقال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله)

وأولو الامر من أهل العلم وأهل الامارة انما تجب طاعتهم اذا امروا بطاعة الله ورسوله قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «على المرء المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه مالم يؤمر بمعصية الله فاذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة» وقال صلى الله عليه وسلم «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»

وأما الشافع فسائل لا تجب طاعته في الشفاعة وان كان عظيما وفي الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم سأل بريرة ان تمسك زوجها ولا تفارقه لما اعتقت وخيرها النبي صلى الله عليه وسلم فاختارت فراقه وكان زوجها يحبها فجعل يبكي فسألها النبي صلى الله عليه وسلم ان تمسكه فقالت أتامرني؟ فقال « لا انما

أنا شافع » وانما قالت أتأمرني وقال « انما أنا شافع » لما استقر عند المسلمين ان طاعة أمره واجبة بخلاف شفاعته فانه لا يجب قبول شفاعته . ولهذا لم يلمها النبي صلى الله عليه وسلم على ترك قبول شفاعته فشفاعة غيره من الخلق أولى ان لا يجب قبولها والخالق جل جلاله أمره أعلا وأجل من ان يكون شافعا الى مخلوق بل هو سبحانه أعلا شأنا من ان يشفع أحد عنده الا باذنه قال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون لا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) ودل الحديث المتقدم على ان الرسول صلى الله عليه وسلم يستشفع به الى الله عز وجل أي يطلب منه الشفاعة في الدنيا والآخرة فاما في الآخرة فيطلب منه الخلق الشفاعة في ان يقضي الله بينهم وفي ان يدخلوا الجنة ويشفع في أهل الكبائر من أمته ويشفع في بعض من يستحق النار ان لا يدخلها ويشفع في بعض من دخلها ان يخرج منها

ولا نزاع بين جماهير الائمة انه يجوز ان يشفع لاهل الطاعة المستحقين الثواب ولكن كثيراً من اهل البدع والخوارج والمعتزلة انكروا شفاعته لاهل الكبائر فقالوا لا يشفع لاهل الكبائر بناء على ان اهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد ان يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها ، ومذهب الصحابة والتابعين وائمة المسلمين وسائر اهل السنة والجماعة انه صلى الله عليه وسلم يشفع في اهل الكبائر وانه لا يخلد في النار من اهل الايمان احد بل يخرج من النار من في قلبه مثقال

حبة من ايمان او مثقال ذرة من ايمان لكن هذا الاستسقاء والاستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون في حياته بمعنى انهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم فكان توسلهم بدعائه والاستشفاع به طلب شفاعته والشفاعة دعاء

فاما التوسل بذاته في حضوره اومغيبه أو بعدموته مثل الاقسام بذاته اوبغيره من الانبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم فليس هذا مشهوراً عند الصحابة والتابعين بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن ابي سفيان ومن بحضرتهما من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم باحسان لما اجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد ابن الاسود ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي صلى الله عليه وسلم لا عند قبره ولا غير قبره بل عدلوا الى البدل كالعباس وكيزيد بل كانوا يصلون عليه في دعائهم ، وقد قال عمر اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فجعلوا هذا بدلاً عن ذلك لما تعذر ان يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه وقد كان من الممكن ان يأتوا الى قبره ويتوسلوا هناك ويقولوا في دعائهم بالجاه ونحو ذلك من الالفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل او السؤال به فيقولون نسألك او نقسم عليك بنبيك او بجاه نبيك ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس

وروى بعض الجهال عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فان جاهي عند الله عظيم ، وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها اهل الحديث ولا ذكره احد من اهل العلم بالحديث مع ان جاهه عند الله تعالى

اعظم من جاه جميع الانبياء والمرسلين وقد اخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام انهما وجيهان عند الله فقال تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) وقال تعالى (اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين) فاذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الاولون والآخرون، وصاحب الكوثر والحوض المورود الذي آنيته عدد نجوم السماء وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلا من العسل ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا، وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم وأولو العزم نوح وابراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ويتقدم هو اليها، وهو صاحب اللواء آدم ومن دونه تحت لوائه، وهو سيد ولد آدم واكرمهم على ربه عز وجل، وهو امام الانبياء اذا اجتمعوا وخطيبهم اذا وفدوا ذو الجاه العظيم صلى الله عليه وسلم وعلى آله

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق فانه لا يشفع عنده احد الا باذنه (إنْ كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبداً * لقد احصاهم وعدهم عدا) وقال تعالى (لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا * فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله واما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا اليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا)

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير اذنه فهو شريك له في حصول المطلوب والله تعالى لا شريك له كما قال سبحانه (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له)

وقد استفاضت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه نهى عن اتخاذ القبور مساجد ولعن من يفعل ذلك ونهى عن اتخاذ قبره عيداً وذلك لان أول ما حدث الشرك في بني آدم كان في قوم نوح قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام وثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم ان نوحا أول رسول بعثه الله الى أهل الارض وقد قال تعالى عن قومه انهم قالوا (لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا) قال غير واحد من السلف هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فلما طال عليهم الامد عبدوهم . وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا عن ابن عباس وذكر ان هذه الآلهة صارت الى العرب وسمى قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الاصنام

فلما علمت الصحابة رضوان الله عليهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حسم مادة الشرك بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد وان كان المصلي يصلي لله عز وجل كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لئلا يشابه المصلين للشمس وان كان المصلي انما يصلي لله تعالى وكان الذي يقصد الدعاء بالميت أو عند قبره أقرب الى الشرك من الذي لا يقصد الا الصلاة لله عز وجل لم يكونوا يفعلون ذلك وكذلك علم الصحابة ان التوسل به انما هو التوسل بالايمان به وطاعته

ومحبته وموالاته والتوسل بدعائه وشفاعته فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا فلما لم يفعل الصحابة رضوان الله عليهم شيئا من ذلك ولا دعوا بمثل هذه الادعية وهم اعلم منا [1] واعلم بما يحب الله ورسوله واعلم بما امر الله به رسوله من الادعية وماهو اقرب الى الاجابة منا بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي صلى الله عليه وسلم — دل عدولهم [2] عن التوسل بالافضل الى التوسل بالمفضول ان التوسل المشروع بالافضل لم يكن ممكنا

وقد قال صلى الله عليه وسلم «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذو قبور أنبيائهم مساجد» رواه مالك في موطأه ورواه غيره وفي سنن أبي داوود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا عليّ حيث ما كنتم فان صلاتكم تبلغني» وفي الصحيحين انه قال في مرض موته «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا قالت عائشة ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره ان يتخذ مسجدا. وفي صحيح مسلم عن جندب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل ان يموت بخمس «اني أبرأ الى الله ان يكون لي منكم خليل ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك» وفي الصحيح

---

(١) يحتمل ان يكون ههنا شيء محذوف وهو ما يأتي نظير له في لاحق الكلام ويحتمل ان يكون المراد انهم أوسع علما منا على الاطلاق ثم عطف المقيد على المطلق

(٢) هذا جواب قوله فلما لم يفعل الصحابة الخ

عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى ابن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله

وقد روى الترمذي حديثا صحيحا عن النبي صلى الله عليه وسلم ان علم رجلا ان يدعو فيقول اللهم اني أسألك وأتوسل اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد يا رسول الله اني أتوسل بك الى ربي في حاجتي ليقضيها لي اللهم شفعه فيّ . وروى الثاني (؟) نحو هذا الدعاء ، وفي الترمذي وابن ماجه عن عثمان بن حنيف ان رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله ان يعافيني فقال ان شئت دعوتُ وان شئتَ صبرتَ فهو خير لك فقال فادعه فأمره ان يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء « اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا رسول الله يا محمد اني توجهت بك الى ربي في حاجتي هذه لتقضى اللهم فشفعه في » قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . ورواه النسائي عن عثمان بن حنيف ولفظه ان رجلا أعمى قال يا رسول الله ادع الله ان يكشف لي عن بصري قال « فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد اني أتوجه بك الى ربي ان يكشف عن بصري اللهم فشفعه في » قال فرجع وقد كشف الله عن بصره وقال الامام أحمد في مسنده حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن يزيد الخطمي المديني قال سمعت عمارة ابن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف ان رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله ادع الله ان يعافيني فقال « ان شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك وان شئت دعوت لك » قال لا بل

ادع الله لي فأمره ان يتوضأ وان يصلي ركعتين وان يدعو بهـذا الدعاء اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمـد نبي الرحمة يا محمد اني أتوجه بك الى ربي في حاجتي هذه فتقضى اللهم فشفعني فيه وشفعه فيّ قال ففعل الرجل فبرأ

فهذا الحديث فيه التوسل به الى الله في الدعاء فمن الناس من يقول هذا يقتضي جواز التوسل به مطلقا حيا وميتاً وهذا يحتج به من يتوسل بذاته بعد موته وفي مغيبه ، ويظن هؤلاء ان توسل الاعمى والصحابة في حياته كان بمعنى الاقسام به على الله أو بمعنى انهم سألوا الله بذاته ان يقضي حوائجهم ويظنون ان التوسل به لا يحتاج الى ان يدعو هو لهم ولا الى ان يطيعوه فسواء عنـد هؤلاء دعا الرسول لهم أو لم يدع الجميع عندهم توسل به وسواء أطاعوه أو لم يطيعوه ويظنون ان الله تعالى يقضي حاجة هـذا الذي توسل به بزعمهم ولم يدع له الرسول كما يقضي حاجة هذا الذي توسل بدعائه ودعاء الرسول صلى الله عليه وسلم إذ كلاهما متوسل به عندهم ويظنون ان كل من سأل الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى وان ما أمر به الأعمى مشروع لهم وقول هؤلاء باطل شرعا وقـدرا فلا هم موافقون لشرع الله ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله

ومن الناس من يقولون هذه قضية عين يثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط الحكم لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها ، والفرق ثابت شرعا وقدرا بين من دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وبين من لم يدع له ولا يجوز ان

يجعل أحدهما كالآخر وهذا الاعمى شفع له النبي صلى الله عليه وسلم فلهذا قال في دعائه اللهم فشفعه فيّ فعلم انه شفيع فيه ولفظه « ان شئت صبرت وان شئت دعوت لك» فقال ادع لي فهو طالب من النبي صلى الله عليه وسلم ان يدعو له فأمره النبي صلى الله عليه وسلم ان يصلي ويدعو هو أيضا لنفسه ويقول في دعائه اللهم فشفعه في فدل ذلك على أن معنى قوله أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد أي بدعائه وشفاعته كما قال عمر اللهم انا كنا اذا أجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا فالحديثان معناهما واحد فهو صلى الله عليه وسلم علم رجلا ان يتوسل به في حياته كما ذكر عمر انهم كانوا يتوسلون به اذا أجدبوا

ثم انهم بعد موته انما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء والتوسل به الذي دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول لم يعدلوا عن التوسل به وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه وأقربهم اليه وسيلة الى ان يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله . وكذلك لو كان أعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الاعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الاعمى فعدولهم عن هذا الى هذا مع انهم السابقون الاولون المهاجرون والانصار والذين اتبعوهم باحسان فانهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله وما يشرع من الدعاء وينفع وما لم يشرع ولا ينفع وما يكون انفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وانزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على ان المشروع ما سألوه دون ما تركوه. ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه

وذلك ان التوسل به حيا هو من جنس مسألته ان يدعو لهم وهذا مشروع فما زال المسلمون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ان يدعو لهم . واما بعد موته فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء لا عند قبره ولا عند غير قبره كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين يسأل أحدهم حاجته أو يقسم على الله به ونحو ذلك وان كان قد روي في ذلك حكايات عن بعض المتأخرين

بل طلب الدعاء مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر لما استأذنه في العمرة « لا تنسنا يا أخي من دعائك » ان صح الحديث وحتى أمر النبي صلى الله وسلم ان يطلب من أويس القرني ان يستغفر للطالب وان كان الطالب أفضل من أويس بكثير وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة» مع ان طلبه من أمته الدعاء ليس هو طلب حاجة من المخلوق بل هو تعليم لامته ما ينتفعون به في دينهم وبسبب ذلك التعليم والعمل بما علمهم يعظم الله اجره فانا اذا صلينا عليه مرة صلى الله علينا عشرا واذا سألنا الله له الوسيلة حلت علينا شفاعته يوم القيامة وكل ثواب يحصل لنا على اعمالنا فله مثل اجرنا من غير ان ينقص من اجرنا شيء فانه صلى الله عليه وسلم قال «من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه من غير ان ينقص ذلك من اجورهم شيئا » وهو الذي دعا امته الى كل خير وكل خير

تعمله امته له مثل اجورهم من غير ان ينقص من اجورهم شيئا ولهذا لم يكن الصحابة والسلف يهدون اليه ثواب اعمالهم ولا يحجون عنه ولا يتصدقون ولا يقرءون القرآن ويهدون له لان كل ما يعمله المسلمون من صلاة وصيام وحج وصدقة وقراءة له صلى الله عليه وسلم مثل اجورهم من غير ان ينقص من اجورهم شيئا بخلاف الوالدين فليس كل ما عمله المسلم من الخير يكون لوالديه مثل اجره ولهذا يهدي الثواب لوالديه وغيرهما

ومعلوم ان الرسول صلى الله عليه وسلم مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى (فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب) فهو صلى الله عليه وسلم لا يرغب الى غير الله وقد ثبت عنه في الصحيح انه قال «يدخل من امتي الجنة سبعون الفا بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فهؤلاء من امته وقد مدحهم بانهم لا يسترقون والاسترقاء ان يطلب من غيره ان يرقيه والرقية من نوع الدعاء وكان هو صلى الله عليه وسلم يرقي نفسه وغيره ولا يطلب من احد ان يرقيه ، ورواية من روى في هذا لا يرقون ضعيفة غلط فهذا مما يبين حقيقة امره لامته بالدعاء انه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره افضل منه فان من لا يسأل الناس بل لا يسأل الا الله افضل ممن يسأل الناس ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم

ودعاء الغائب للغائب اعظم اجابة من دعاء الحاضر لانه اكمل اخلاصا وابعد عن الشرك فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه الى دعاء من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر ، وفي الحديث «اعظم الدعاء اجابة دعاء غائب لغائب» وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «ما من رجل يدعو لاخيه بظهر الغيب بدعوة الا وكل الله ملكا

كلما دعا لاخيه بدعوة قال الملك الموكل به امين ولك بمثل» وذلك ان المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه والمخلوق قادر على دعاء الله ومسألته فلهذا كان طلب الدعاء جائزا كما يطلب منه الاعانة بما يقدر عليه والافعال التي يقدر عليها

فاما ما لا يقدر عليه الا الله تعالى فلا يجوز ان يطلب الا من الله سبحانه لا يطلب ذلك لا من الملائكة ولا من الانبياء ولا من غيرهم ولا يجوز ان يقال لغير الله اغفر لي واسقنا الغيث وانصرنا على القوم الكافرين او اهد قلوبنا ونحو ذلك ولهذا روى الطبراني في معجمه انه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين فقال الصديق قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق فجاؤا اليه فقال « انه لا يستغاث بي وانما يستغاث بالله » وهذا في الاستعانة مثل ذلك

فاما ما يقدر عليه البشر فليس من هذا الباب وقد قال سبحانه (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وفي دعاء موسى عليه السلام «اللهم لك الحمد واليك المشتكى واليك المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك» وقال ابو يزيد البسطامي استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق وقال ابو عبد الله القرشي استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون وقال تعالى « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا » قال طائفة من السلف كان اقوام يدعون الملائكة

والانبياء فقال الله تعالى هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما انتم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ويتقربون الي كما تتقربون الي . فنهي سبحانه عن دعاء الملائكة والانبياء مع اخباره لنا ان الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ومع هذا فليس لنا ان نطلب ذلك منهم وكذلك الانبياء والصالحون وان كانوا أحياء في قبورهم وان قدر انهم يدعون للاحياء وان وردت به آثار فليس لاحد ان يطلب منهم ذلك ولم يفعل ذلك احد من السلف لان ذلك ذريعة الى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من احدهم في حياته فانه لا يفضي الى الشرك ولان ما تفعله الملائكة ويفعله الانبياء والصالحون بعد الموت هو بالامر الكوني فلا يؤثر فيه سؤال السائلين بخلاف سؤال احدهم في حياته فانه يشرع اجابة السائل وبعد الموت انقطع التكليف عنهم

وقال تعالى (ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ايأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون) بين سبحانه ان من اتخذ الملائكة والنبيين اربابا فهو كافر وقال تعالى (قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير* ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) وقال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) وقال تعالى (ما من شفيع الا من بعد اذنه) وقال تعالى (ما لكم من دونه ولي ولا شفيع) وقال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا

يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى عن صاحب يس (وما لي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون ء أتخذ من دونه آلهة ان يردني الرحمن بضر لا تغني عنهم شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ء اني اذاً لفي ضلال مبين ء اني آمنت بربكم فاسمعون)

فالشفاعة نوعان : احدهما الشفاعة التي نفاها الله تعالى كالتي اثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الامة ، والثاني ان يشفع الشفيع باذن الله وهذه التي اثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ولهذا كان سيد الشفعاء اذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتي ويسجد قال «فاحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا احسنها الآن فيقال اي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع» فاذا اذن له في الشفاعة شفع صلى الله عليه وسلم تسليما

قال اهل هذا القول ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به بمعنى ان يكون هو داعيا للمتوسل به ان يشرع ذلك في مغيبه وبعد موته مع انه هو لم يدع للمتوسل به بل المتوسل به اقسم به او سأل بذاته مع كون الصحابة فرقوا بين الامرين وذلك لانه في حياته يدعو هو لمن توسل به ودعاؤه هو لله سبحانه افضل دعاء الخلق فهو افضل الخلق واكرمهم على الله فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له افضل دعاء مخلوق لمخلوق فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول ولم يشفع له ومن سوى بين من دعا له الرسول وبين من لم يدع له الرسول وجعل هذا التوسل كهذا التوسل فهو من اضل الناس

وايضا فانه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر بل هو خير بلا شر وليس في ذلك محذور ولا مفسدة فان احدا من الانبياء عليهم

السلام لم يعبد في حياته بحضوره فانه ينهى من يعبده ويشرك به ولو كان شركا اصغر كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم من سجد له عن السجود له وكما قال «لا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ماشاء الله ثم شاء محمد» وامثال ذلك

واما بعد موته فيخاف الفتنة والاشراك به كما أشرك بالمسيح والعزير وغيرهما عند قبورهم وغير قبورهم. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» أخرجاه في الصحيحين وقال «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد» وقال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر مافعلوا

وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان أحدهما ان لا نعبد الا الله والثاني ان لا نعبده الا بما شرع لا نعبده بعبادة مبتدعة. وهذان الاصلان هما تحقيق شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله كما قال تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال الفضيل بن عياض اخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وذلك تحقيق قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لاحد فيه شيئا وقال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله)

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من أحدث من أمرنا ماليس فيه فهو رد» وفي لفظ في الصحيح

« من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وفي الصحيح وغيره ايضا يقول الله تعالى: «انا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فانا منه بريء وهو كله للذي أشرك » ولهذا قال الفقهاء العبادات مبناها على التوقيف كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب انه قبل الحجر الاسود وقال والله اني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك لما قبلتك. والله سبحانه امرنا باتباع الرسول وطاعته وموالاته ومحبته وان يكون الله ورسوله أحب الينا مما سواهما وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته فقال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى(وان تطيعوه تهتدوا)وقال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فان له جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) وامثال ذلك في القرآن كثير

ولا ينبغي لاحد ان يخرج في هذا عما مضت به السنة وجاءت به الشريعة ودل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الامة وماعلمه قال به وما لم يعلمه امسك عليه ولا يقفو ما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لم يعلم فان الله تعالى قد حرم ذلك كله، وقد جاء في الاحاديث النبوية ذكر ما سأل الله تعالى به كقوله صلى الله عليه وسلم «اللهم اني أسألك بان لك الحمد لا اله الا انت المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام يا حي ياقيوم» رواه ابو داود وغيره وفي لفظ «اللهم اني اسألك باني اشهد انك انت الله لا آله الا انت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد» رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه

وقد اتفق العلماء على انه لا ينعقد اليمين بغير الله تعالى وهو الحلف بالمخلوقات فلو حلف بالكعبة أو بالملائكة أو باحد من الشيوخ أو الملوك لم ينعقد يمينه ولا يشرع له ذلك بل ينهى عنه اما نهي تحريم واما نهي تنزيه . ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال «من حلف بغير الله فقد اشرك» ولم يقل احد من العلماء المتقدمين انه ينعقد اليمين باحد من الخلق الا في نبينا صلى الله عليه وسلم فان عن احمد روايتين في انه ينعقد اليمين به وقد طرد بعض اصحابه كابن عقيل الخلاف في سائر الانبياء وهذا ضعيف . واصل القول بانعقاد اليمين بالنبي ضعيف شاذ ولم يقل به أحد من العلماء فيما نعلم والذي عليه الجمهور كمالك والشافعي وابي حنيفة انه لا ينعقد اليمين به كاحدى الروايتين عن احمد وهذا هو الصحيح

وكذلك الاستعاذة بالمخلوقات بل انما يستعاذ بالخالق تعالى واسمائه وصفاته ولهذا احتج السلف كاحمد وغيره على ان كلام الله غير مخلوق فيما احتجوا به بقول النبي صلى الله عليه وسلم «اعوذ بكلمات الله التامات» قالوا فقد استعاذ بها ولا يستعاذ بمخلوق ، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال «لا بأس بالرقى ما لم يكن شركا» فنهى عن الرقى التي فيها شرك كالتي فيها استعاذة بالجن كما قال تعالى (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والاقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره التي تتضمن الشرك بل نهوا عن كل ما لا يعرف معناه من ذلك خشية ان يكون فيه شرك بخلاف ما كان من الرقى المشروعة فانه جائز فاذا لا يجوز ان يقسم لا قسما مطلقا ولا قسما على غيره الا بالله عز وجل

والسائل لله بغير الله اما ان يكون مقسما عليه واما ان يكون طالبا بذلك السبب كما توسل الثلاثة في الغار باعمالهم وكما يتوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين فان كان اقساما على الله بغيره فهذا لا يجوز وان كان سؤالا بسبب يقتضي المخلوق[١] كالسؤال بالاعمال التي فيها طاعة الله ورسوله مثل السؤال بالايمان بالرسول ومحبته وموالاته ونحو ذلك فهذا جائز وان كان سؤالا بمجرد ذات الانبياء والصالحين فهذا غير مشروع وقد نهى عنه غير واحد من العلماء وقالوا انه لا يجوز ورخص فيه بعضهم ، والاول أرجح كما تقدم وهو سؤال بسبب لا يقتضي حصول المطلوب بخلاف من كان طالبا بالسبب المقتضي لحصول المطلوب كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين وبالاعمال الصالحة فهذا جائز لان دعاء الصالحين سبب لحصول مطلوبنا الذي دعوا به وكذلك الاعمال الصالحة سبب لثواب الله لنا وإذا توسلنا بدعائهم واعمالنا كنا متوسلين اليه تعالى بوسيلة كما قال تعالى (ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) والوسيلة هي الاعمال الصالحة وقال تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة)

واما اذا لم نتوسل اليه سبحانه بدعائهم ولا باعمالنا ولكن توسلنا بنفس ذواتهم لم يكن نفس ذواتهم سببا يقتضي اجابة دعائنا فكنا متوسلين بغير وسيلة ولهذا لم يكن هذا منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلا صحيحا ولا مشهورا عن السلف وقد نقل في منسك المروذي عن احمد دعاء فيه السؤال بالنبي صلى الله عليه وسلم وهذا قد يخرج على احدى الروايتين عنه

(١) كذا في الاصل ولعل فيه تحريفاً وحذفاً والمراد فان كان سؤالا بسبب يقتضي الاجابة أو المطلوب كما تقدم نظيره وكما يأتي مثله قريباً

في جواز القسم به واعظم العلماء على النهي في الامرين

ولا ريب أن لهم عند الله الجاه العظيم كما قال تعالى في حق موسى وعيسى عليهما السلام وقد تقدم ذكر ذلك لكن مالهم عند الله تعالى من المنازل والدرجات امر يعود نفعه اليهم ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم فاذا توسلنا الى الله تعالى بايماننا بنبيه ومحبته وموالاته واتباع سنته فهذا من أعظم الوسائل واما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالايمان به وطاعته فلا يجوز ان يكون وسيلة ، فالمتوسل بالمخلوق اذا لم يتوسل بايمان المتوسل به ولا بطاعته فبأي شيء يتوسل والانسان اذا توسل الى غيره بوسيلة فاما ان يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك مثل ان يقال لابي الرجل أو صديقه أو من يلزم عليه اشفع لنا عنده وهذا جائز ، واما ان يقسم عليه والاقسام على الله تعالى بالمخلوقين لا يجوز ولا يجوز الاقسام على مخلوق بمخلوق ، واما ان يسأل بسبب يقتضي المطلوب كما قال الله تعالى (واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) وسيأتي بيان ذلك

وقد تبين ان الاقسام على الله سبحانه بغيره لا يجوز ولا يجوز ان يقسم بمخلوق أصلاً ، وأما التوسل اليه بشفاعة المأذون لهم في الشفاعة فجائز والاعمى كان قد طلب من النبي صلى الله عليه وسلم ان يدعو له كما طلب الصحابة منه الاستسقاء ، وقوله أتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة أي بدعائه وشفاعته لي ولهذا تمام الحديث «اللهم فشفعه في» فالذي في الحديث متفق على جوازه وليس هو مما نحن فيه وقد قال تعالى (واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) فعلى قراءة الجمهور بالنصب انما يسألون بالله وحده لا بالرحم وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن

إقسام بعضهم على بعض بالله وتعاهدهم بالله واما على قراءة الخفض فقد قال طائفة من السلف هو قولهم أسألك بالله وبالرحم وهذا اخبار عن سؤالهم وقد يقال انه ليس بدليل على جوازه فان كان دليلا على جوازه فمعنى قوله أسألك بالرحم ليس اقساما بالرحم والقسم هنا لا يسوغ لكن بسبب الرحم أي لان الرحم توجب لاصحابها بعضهم على بعض حقوقا كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة وكسؤالنا بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته ، ومن هذا الباب ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ان ابن أخيه عبد الله بن جعفر كان اذا سأله بحق جعفر اعطاه وليس هذا من باب الاقسام فان الاقسام بغير جعفر أعظم بل من باب حق الرحم لان حق الله انما وجب بسبب جعفر وجعفر حقه على علي (١)

ومن هذا الباب الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الخارج الى الصلاة اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فاني لم أخرج اشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك ان تنقذني من النار وان تغفر لي ذنوبي فانه لا يغفر الذنوب الا انت» وهذا الحديث في اسناده عطية العوفي وفيه ضعف فان كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهو من هذا الباب لوجهين أحدهما لان فيه السؤال لله تعالى بحق السائلين وبحق الماشين في طاعته وحق السائلين ان يجيبهم وحق الماشين ان يثيبهم وهذا حق أوجبه الله تعالى وليس للمخلوق ان

---

(١) العبارة كما ترى تشكو من تحريف النساخ والمعنى ان جعفر كان له حق على اخيه علي (رضي الله عنهما) فاذا سئل بسبب حقه عليه اجابه

يوجب على الخالق تعالى شيئا ، ومنه قوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة ، وقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وقوله تعالى (وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله) وفي الصحيح في حديث معاذ «حق الله على عباده ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ان لا يعذبهم » وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى انه قال « ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » واذا كان حق السائلين والعابدين له هو الاجابة والاثابة بذلك فذلك سؤال لله نافعا له (؟) كالاستعاذة بنحو ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك واعوذ بك منك لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك» فالاستعاذة بمعافاته التي هي فعله كالسؤال باثابته التي هي فعله

الوجه الثاني ان الدعاء له سبحانه وتعالى والعمل له سبب بحصول مقصود العبد فهو كالتوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين من امته وقد تقدم ان الدعاء بالنبي صلى الله عليه وسلم والصالح اما ان يكون اقساما به اوسببا به فان كان قوله بحق السائلين عليك اقساما فلا يقسم على الله الا به وان كان سببا فهو سبب بما جعله هو سبحانه سببا وهو دعاؤه وعبادته فهذا كله يشبه بعضه بعضا وليس في شيء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه ولا عمل صالح منا

واذا قال السائل اسألك بحق الملائكة أو بحق الانبياء وحق الصالحين — ولا يقول لغيره اقسمت عليك بحق هؤلاء — فاذا لم يجز له ان يحلف به ولا يقسم على

مخلوق به فكيف يقسم على الخالق به وان كان لا يقسم به وانما يتسبب به فليس في مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب تحصيل مقصوده ولكن لا بد من سبب منه كالايمان بالملائكة والانبياء أو منهم كدعائهم ولكن كثيرا من الناس تعودوا ذلك كما تعودوا الحلف بهم حتى يقول احدهم وحقك على الله وحق هذه الشيبة على الله

واذا قال القائل أسألك بحق فلان أو بجاهه أي أسألك بايماني به ومحبتي له وهذا من أعظم الوسائل قيل من قصد هذا المعنى فهو معنى صحيح لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء فمن قال أسألك بإيماني بك وبرسولك ونحو ذلك أو بايماني برسولك ومحبتي له ونحو ذلك فقد أحسن في ذلك كما قال تعالى في دعاء المؤمنين (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار) وقال تعالى (الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) وقال تعالى (انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين) وقال تعالى (ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) وكان ابن مسعود يقول اللهم امرتني فأطعتك ودعوتني فاجبتك وهذا سحر فاغفرلي . ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين اصابهم المطر فاووا الى الغار وانطبقت عليهم الصخرة ثم دعوا الله سبحانه باعمالهم الصالحة ففرج عنهم وهو ماثبت[1]

وقال ابو بكر بن ابي الدنيا حدثنا خالد بن خراش العجلاني واسماعيل ابن ابراهيم قالا حدثنا صالح المزي عن ثابت عن انس قال دخلنا على رجل

---

(١) لعل الاصل « وهو ماثبت في الصحيحين » وما اظن ان المصنف قال « ماثبت » فقط وهي تحتمل النفي

من الانصار وهو مريض ثقيل فلم نبرح حتى قبض فبسطنا عليه ثوبه وله أم عجوز كبيرة عند رأسه فالتفت اليها بعضنا وقال ياهذه احتسبي مصيبتك عند الله قالت وماذاك مات ابني ؟ قلنا نعم قالت احق ماتقولون ؟ قلنا نعم فمدت يديها الى الله فقالت اللهم انك تعلم اني اسلمت وهاجرت الى رسولك رجاء ان تعقبني عند كل شدة فرجا فلا تحمل عليّ هذه المصيبة اليوم. قال فكشفت الثوب عن وجهه فما برحنا حتى طعمنا معه. وروي في كتاب الحلية لابي نعيم ان داود قال بحق آبائي عليك ابراهيم واسحاق ويعقوب فأوحي الله تعالى اليه ياداود أيّ حق لابيك علي . وهذا وان لم يكن من الدلالة الشرعية فالاسرائيليات يعتضد بها ولا يعتمد عليها

وقد مضت السنة ان الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه واما المخلوق الغائب والميت فلا يطلب منه شيء . يحقق هذا الامر ان التوسل به والتوجه به لفظ فيه اجمال واشتراك بحسب الاصطلاح فمعناه في لغة الصحابة ان يطلب منه الدعاء والشفاعة فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته ودعاؤه وشفاعته صلى الله عليه وسلم من اعظم الوسائل عند الله عز وجل واما في لغة كثير من الناس فمعناه ان يسأل الله تعالى ويقسم عليه بذاته والله تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات بل لا يقسم بها بحال فلا يقال اقسمت عليك يارب بملائكتك ولا بكعبتك ولا بعبادك الصالحين كما لا يجوز ان يقسم الرجل بهذه الاشياء بل انما يقسم بالله تعالى باسمائه وصفاته ولهذا كان السنة ان يسأل الله تعالى باسمائه وصفاته فيقول اسألك بان لك الحمد لا اله الا انت المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام ياحي يا قيوم واسألك بانك انت الله الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن

له كفواً احد ، وكذلك قوله اللهم اني اسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الاعظم وجدك الاعلى وبكلماتك التامات ، مع ان هذا الدعاء الثالث في جواز الدعاء به قولان للعلماء ، قال الشيخ ابو الحسين القدوري في كتابه المسمى بشرح الكرخي قال بشر ابن الوليد سمعت ابا يوسف قال قال ابو حنيفة لا ينبغي لاحد أن يدعو الله الا به واكره ان يقول بمعاقد العز من عرشك او بحق خلقك وهو قول ابي يوسف قال ابو يوسف معقد العز من عرشه هو الله فلا اكره هذا واكره ان يقول بحق انبيائك ورسلك وبحق البيت والمشعر الحرام قال القدوري المسألة بخلقه لا تجوز لانه لا حق للمخلوق على الخالق فلا يجوز يعني وفاقا وهذا من ابي حنيفة وابي يوسف وغيرهما يقتضي المنع ان يسأل الله بغيره

فان قيل الرب سبحانه وتعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس لنا ان نقسم عليه الا به فهلا قيل يجوز ان يقسم عليه بمخلوقاته وان لا يقسم على مخلوق الا بالخالق تعالى. قيل لان اقسامه سبحانه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه وذكر آياته واقسامنا نحن بذلك شرك اذا اقسمنا به لحض غيرنا او لمنعه او تصديق خبر اوتكذيبه ، ومن قال لغيره اسألك بكذا فاما ان يكون مقسما فهذا لا يجوز بغير الله تعالى والكفارة في هذا على المقسم لا على المقسم عليه كما صرح بذلك ائمة الفقهاء وان لم يكن مقسما فهو من باب السؤال فهذا لا كفارة فيه على واحد منهما

فتبين ان السائل لله بخلقه اما ان يكون حالفا بمخلوق وذلك لا يجوز واما ان

يكون سائلا به وقد تقدم تفصيل ذلك واذا قال بالله افعل كذا فلا كفارة فيه على واحد منهما واذا قال اقسمت عليك بالله لتفعلن أو والله لتفعلن، فلم يبر قسمه لزمت الكفارة الحالف. والذي يدعو بصيغة السؤال فهو من باب السؤال به ، واما اذا اقسم على الله تعالى مثل أن يقول اقسمت عليك يا رب لتفعلن كذا كما كان يفعل البراء بن مالك وغيره من السلف فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم «انه قال رب اشعث اغبر ذي طمرين مدفوع بالابواب لو اقسم على الله لأبره» وفي الصحيح انه قال لما قال انس بن النضر والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع فقال النبي صلى الله عليه وسلم «يا انس كتاب الله القصاص» فعفا القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ان من عباد الله من لو اقسم على الله لأبره» وهذا من باب الحلف بالله لتفعلن هذا الامر فهو اقسام عليه تعالى وليس اقساما عليه بمخلوق

وينبغي للخلق ان يدعوا بالادعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة فان ذلك لا ريب في فضله وحسنه وانه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وقد تقدم ان ما يذكره بعض العامة من قوله صلى الله عليه وسلم اذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهي حديث باطل لم يروه احد من اهل العلم ولا هو في شيء من كتب الحديث، وانما المشروع الصلاة عليه في كل دعاء ولهذا لما ذكر العلماء الدعاء في الاستسقاء وغيره ذكروا الصلاة عليه ولم يذكروا فيما شرع للمسلمين في هذه الحال التوسل به كما لم يذكر احد من العلماء دعاء غير الله والاستعانة المطلقة بغيره في حال من الاحوال وان

كان بينهما فرق فان دعاء غير الله كفر ولهذا لم ينقل دعاء احد من الموتى والغائبين لا الانبياء ولا غيرهم عن احد من السلف وائمة العلم وانما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من ائمة العلم المجتهدين بخلاف قولهم اسألك بجاه بنبينا او بحقه فان هذا مما نقل عن بعض المتقدمين فعله ولم يكن مشهورا بينهم ولا فيه سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم بل السنة تدل على النهي عنه كما نقل ذلك عن ابي حنيفة وابي يوسف وغيرهما ،

ورأيت في فتاوي الفقيه ابي محمد بن عبد السلام : قال لا يجوز ان يتوسل الى الله باحد من خلقه الا برسول الله صلى الله عليه وسلم ان صح حديث الاعمى. فلم يعرف صحته وقد تقدم ان هذا الحديث لا يدل الا على التوسل بدعائه ليس من باب الاقسام بالمخلوق على الله تعالى ولا من باب السؤال بذات الرسول كما تقدم والذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء وعدلوا عما أمروا به وشرع لهم وهو من أنفع الأمور لهم الى ما ليس كذلك فان الصلاة عليه من أعظم الوسائل التي بها يستجاب الدعاء وقد أمر الله بها

والصلاة عليه في الدعاء هو الذي دل عليه الكتاب والسنة والاجماع قال الله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وفي الصحيح عنه انه قال «من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا» وعن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله ولا يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره « اذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه ثم يصل على النبي ثم يدعو بعده بما شاء» رواه أحمد وأبو داود وهذا لفظه والترمذي والنسائي

وقال الترمذي حديث صحيح ، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فان من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون انا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وفي سنن أبي داوود والنسائي عنه ان رجلا قال يا رسول الله ان المؤذنين يفضلوننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قل كما يقولون فاذا انتهت سل تعطه» . وفي المسند عن جابر بن عبد الله قال من قال حين ينادي المنادي اللهم رب هذه الدعوة القائمة والصلاة النافعة صلّ على محمد وارض عنه رضاء لا سخط بعده» استجاب الله له دعوته وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء لا يرد بين الأذان والاقامة» رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي حديث حسن وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء قلّما ترد على داع دعوته: عند حضور النداء والصف في سبيل الله » رواه أبو داود . وفي المسند والترمذي وغيرهما عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذهب ربع الليل قام فقال « يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه » قال أبيّ قلت يا رسول الله اني أكثر الصلاة عليك فكم اجعل لك من صلاتي قال « ما شئت» قلت الربع قال «ما شئت وان زدت فهو خير لك» قلت النصف قال « ما شئت وان زدت فهو خير لك » قلت الثلثين قال « ما شئت وان زدت فهو خير

لك » قلت أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال «اذاً يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك» وفي لفظ « اذا يكفى همك ويغفر ذنبك » وقول السائل اجعل لك من صلاتي يعني من دعائي فان الصلاة في اللغة هي الدعاء قال تعالى (وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم صل على آل أبي أوفى» وقالت امرأة صل عليّ يارسول الله وعلى زوجي فقال «صلى الله عليك وعلى زوجك » فيكون مقصود السائل أي يارسول الله ان لي دعاء أدعو به أستجلب به الخير وأستدفع به الشر فكم اجعل لك من الدعاء قال ما شئت فلما انتهى الى قوله اجعل لك صلاتي كلها قال اذا تكفى همك ويغفر ذنبك . وفي الرواية الأخرى «اذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك» وهذا غاية مايدعو به الانسان من جلب الخيرات ودفع المضرات فان الدعاء فيه تحصيل المطلوب واندفاع المرهوب كما بسط ذلك في مواضعه وقد ذكر علماء الاسلام وأئمة الدين الادعية الشرعية وأعرضوا عن الادعية البدعية فينبغي اتباع ذلك .

والمراتب في هذا الباب ثلاث (إحداها) ان يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سواء كان من الانبياء والصالحين أو غيرهم فيقول يا سيدي فلان أغثني أو انا أستجير بك أو أستغيث بك أو انصرني على عدوي . واعظم من ذلك ان يقول اغفر لي وتب علي كما يفعله طائفة من الجهال المشركين واعظم من ذلك ان يسجد لقبره ويصلي اليه ويرى الصلاة اليه افضل من استقبال القبلة حتى يقول بعضهم هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام واعظم من ذلك ان يرى السفر اليه من جنس الحج حتى يقول

ان السفر اليه مرات يعدل حجة وغلاتهم يقولون الزيارة اليه مرة افضل من حج البيت مرات متعددة ونحو ذلك ، فهذا شرك بهم وان كان يقع كثير من الناس في بعضه .

(الثانية) ان يقال للميت او الغائب من الانبياء والصالحين ادع الله لي او ادع لنا ربك او اسأل الله لنا كما تقول النصارى لمريم وغيرها فهذا ايضا لا يستريب عالم انه غير جائز وانه من البدع التي لم يفعلها احد من سلف الامة وان كان السلام على أهل القبور جائزا ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم اصحابه اذا زاروا القبور ان يقول قائلهم «السلام عليكم اهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم لاحقون يغفر الله لنا ولكم نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا اجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم» وروى ابو عمر بن عبد البر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام» وفي سنن ابي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من مسلم يسلم علي الا رد الله على روحي حتى ارد عليه السلام» لكن ليس من المشروع أن يطلب من الاموات لا دعاء ولا غيره ، وفي موطإ مالك أن ابن عمر كان يقول السلام عليك يارسول الله السلام عليك يا ابا بكر السلام عليك يا ابه ثم ينصرف ، وعن عبد الله ابن دينار قال رأيت عبدالله بن عمر يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو لأبي بكر وعمر وكذلك انس ابن مالك وغيره نقل عنهم انهم كانوا يسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم فاذا ارادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى لا يدعون مستقبلي

الحجرة وان كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة فلم يذهب الى ذلك امام متبع في قوله ولا من له في الامة لسان صدق عام

ومذهب الائمة الاربعة مالك وابي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من ائمة الاسلام أن الرجل اذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم واراد أن يدعو لنفسه فانه يستقبل القبلة واختلفوا في وقت السلام عليه فقال الثلاثة مالك والشافعي واحمد يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه، وقال ابو حنيفة لا يستقبل الحجرة وقت السلام كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم ثم في مذهبه قولان قيل يستدبر الحجرة وقيل يجعلها عن يساره . فهذا نزاعهم في وقت السلام واما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في انه انما يستقبل القبلة لا الحجرة

والحكاية التي تذكر عن مالك انه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فامره بذلك وقال « هو وسيلتك ووسيلة ابيك آدم» كذب على مالك ليس لها اسناد معروف وهو خلاف الثابت المنقول عنه باسانيد الثقات في كتب اصحابه كما ذكره اسماعيل بن اسحاق القاضي وغيره ، مثل ماذكروا عنه انه سئل عن اقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم فانكر مالك ذلك وذكر انه من البدع التي لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم باحسان وقال لا يصلح آخر هذه الامة الا ما اصلح اولها

ولا ريب أن الامر كما قاله مالك فان الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين ان هذا لم يكن من عملهم وعادتهم ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعا لكانوا هم اعلم بذلك وكانوا اسبق اليه ممن بعدهم والداعي

يدعو الله وحده وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن ابي مرثد الغنوي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها» فلا يجوز أن يصلى الى شيء من القبور لا قبور الانبياء ولا غيرهم لهذا الحديث الصحيح

ولا خلاف بين المسلمين انه لا يشرع ان يقصد الصلاة الى القبر بل هذا من البدع المحدثة . وكذلك قصد شيء من القبور لا سيما قبور الانبياء والصالحين عند الدعاء اذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه أولى ان لا يجوز كما انه لا يجوز ان يصلي مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الاولى نعلم انه لا يجوز ان يسأل الميت شيئا لا يطلب منه ان يدعو الله ولا غير ذلك ولا يجوز ان يشكى شيء من مصائب الدنيا والدين ولو جاز ان يشكى اليه ذلك في حياته فانه ذلك في حياته لا يفضي الى الشرك وهذا يفضي الى الشرك لانه في حياته مكلف ان يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الاجر والثواب وبعد الموت ليس مكلفا بل ما يفعله من ذكر لله تعالى ودعاء ونحو ذلك كما ان موسى يصلي في قبره وكما صلى الانبياء خلف النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ببيت المقدس وتسبيح أهل الجنة والملائكة فهم يتمتعون بذلك[1] وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقدره لهم ليس هو من باب التكليف الذي يمتحن به العباد

---

(١) هذه الجملة خبر قوله « بل ما يفعله من ذكر ودعاء » وجاء جما ليشمل به ما ذكره في التشبيه والتنظير عن موسى والانبياء والملائكة ويحتمل ان يكون في الكلام تحريف من الناسخ

وحينئذ فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئاً بل ما جعله الله فاعلاً له هو يفعله وان لم يسأله العبد كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به وهم انما يطيعون أمر ربهم لا يطيعون أمر مخلوق كما قال سبحانه وتعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) فهم لا يعملون الا بأمره سبحانه وتعالى

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته فان بيته كانت الصلاة فيه مشروعة وكان يجوز ان يجعل مسجداً ولما دفن فيه حرم ان يتخذ مسجداً كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد» يحذرما فعلوا. ولولا ذلك لابرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً ، وفي صحيح مسلم وغيره عنه صلى الله عليه وسلم انه قال «ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني انهاكم عن ذلك» وقد كان صلى الله عليه وسلم في حياته يصلّى خلفه وذلك من افضل الاعمال ولا يجوز بعد موته ان يصلي الرجل خلف قبره وكذلك في حياته يطلب منه ان يأمر وان يفتي وان يقضي ولا يجوز ان يطلب ذلك منه بعد موته ، وامثال ذلك كثيرة وقد كره مالك وغيره ان يقول الرجل زرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لان هذا اللفظ لم يرد والاحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب وهذا اللفظ صار مشتركا في عرف المتأخرين يراد به الزيارة البدعية التي في معنى الشرك كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به أو يسأل الله عنده

والزيارة الشرعية هي ان يزوره لله تعالى للدعاء له والسلام عليه

كما يصلي على جنازته فهذا الثاني هو المشروع ولكن كثيرا من الناس لا يقصد بالزيارة الا المعنى الاول فكره مالك ان يقول زرت قبره لما فيه من ايهام المعنى الفاسد الذي يقصده اهل البدع والشرك

الثالثة ان يقال اسألك بفلان او بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذي تقدم عن ابي حنيفة وابي يوسف وغيرهما انه منهي عنه وتقدم ايضا ان هذا ليس بمشهور عن الصحابة بل عدلوا عنه الى التوسل بدعاء العباس وغيره

وقد تبين ما في لفظ التوسل من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تفعله وبين ما لم يكونوا يفعلونه فان لفظ التوسل والتوجه في عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته ولهذا يجوز ان يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن وان كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «اذا اعيتكم الامور فعليكم باهل القبور او فاستعينوا باهل القبور» فهذا الحديث كذب مفترى عن النبي صلى الله عليه وسلم باجماع العارفين بحديثه لم يروه احد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة وقد قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا) وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام انه غير مشروع وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عما هو اقرب من ذلك عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ولعن اهله تحذيراً من التشبه بهم فان ذلك اصل عبادة الاوثان كما قال تعالى (وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا) فان هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروهم ثم اتخذوا الاصنام على صورهم كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف

وهذا الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الشرك هو كذلك في شرائع غيره من الانبياء ففي التوراة ان موسى عليه السلام نهى بني اسرائيل عن دعاء الاموات وغير ذلك من الشرك وذكر أن ذلك من اسباب عقوبة الله لمن فعله وذلك ان دين الانبياء عليهم السلام واحد وان تنوعت شرائعهم كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «انا معاشر الانبياء ديننا واحد» وقد قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) وقال تعالى (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم * وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) وقال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون * منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) وهذا هو دين الاسلام الذي لا يقبل الله دينا غيره من الاولين والآخرين كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع

فصل

واذا تبين ما أمر الله به ورسوله وما نهى الله عنه ورسوله في حق أشرف الخلق وأكرمهم على الله عز وجل وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبيين وأفضل الاولين والآخرين وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاها

عند الله تبارك وتعالى تبين ان من دونه من الانبياء والصالحين أولى بان لا يشرك به ولا يتخذ قبره وثنا يعبد ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته

ولا يجوز لاحد ان يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ولا الميتين مثل ان يقول يا سيدي فلانا أغثني وانصرني وادفع عني أو أنا في حسبك ونحو ذلك بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الاوثان صار الشيطان يضلهم ويغويهم كما يضل عباد الاصنام ويغويهم فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به وتخاطبهم باشياء على سبيل المكاشفة كما تخاطب الشياطين الكهان وبعض ذلك صدق لكن لا بد ان يكون في ذلك ما هو كذب بل الكذب اغلب عليه من الصدق وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه فيظن أحدهم ان الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتى فعل ذلك أو يظن ان الله تعالى صور ملكاً على صورته فعل ذلك ويقول أحدهم هذا سر الشيخ وحاله وانما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به كما تدخل الشياطين في الاصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب وهو اليوم موجود في المشركين من الترك والهند وغيرهم

وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في اقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا

في الهواء ورفعنا عنهم ولما حدثوني بذلك بينت لهم ان ذلك انما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا ان ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين وهذا من أكبر الاسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الاوثان وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلاس يرون أيضا من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم

وهؤلاء الذين يستغيثون بالاموات من الانبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم غاية أحدهم ان يجري له بعض هذه الامور او تحكي لهم بعض هذه الامور فيظن ان ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتي الى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح او غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه وانما ذلك كله من الشياطين وهذا من أعظم الاسباب التي عبدت بها الاوثان. وقال الخليل عليه السلام (واجنبني وبنيَّ أن نعبد الاصنام * ربي انهن اضللن كثيرا من الناس) كما قال نوح عليه السلام ومعلوم ان الحجر لا يضل كثيراً من الناس الا بسبب اقتضى ضلالهم ولم يكن أحد من عباد الاصنام يعتقد انها خلقت السموات والارض بل انما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لأسباب منهم من صورها على صور الانبياء والصالحين ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر ومنهم من جعلها لاجل الجن ومنهم من جعلها لاجل الملائكة فالمعبود لهم في قصدهم وهم انما هو للملائكة والانبياء والصالحين أو الشمس أو القمر

وهم في نفس الامر يعبدون الشياطين فهي التي تقصد من الانس ان يعبدوها وتظهر لهم مايدعوهم الى ذلك كما قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون) واذا كان العابد ممن لا يستحل عبادة الشياطين أوهموه انه انما يدعو الانبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به واما ان كان ممن لا يحرم عبادة الجن عرفوه انهم الجن وقد يطلب الشيطان الممثل له في صورة الانسان ان يسجد له او ان يفعل به الفاحشة أو ان يأكل الميتة ويشرب الخمر أو ان يقرب لهم الميتة وأكثرهم لا يعرفون ذلك بل يظنون ان من يخاطبهم اما ملائكة واما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ويظنون ان رجال الغيب أولياء الله غائبون عن أبصار الناس وأولئك جن تمثلت بصور الانس أو رؤيت في غير صور الانس قال تعالى (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهقا) كان الانس اذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه وكانت الانس تستعيذ بالجن فصار ذلك سببا لطغيان الجن وقالت الانس تستعيذ بنا .

وكذلك الرقى والعزائم الاعجمية هي تتضمن اسماء رجال من الجن يدعون ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الامور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه

وما هم بضارين به من احد الا باذن الله ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق * ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) وكثير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به الى مكة وغيرها ويكون مع ذلك زنديقا يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسوله وانما يقترن به أولئك الشياطين لما فيه من الكفر والفسوق والعصيان حتى اذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله فارقته تلك الشياطين وذهبت تلك الاحوال الشيطانية من الاخبارات والتأثيرات وانا أعرف من هؤلاء عدداً كثيراً بالشام ومصر والحجاز واليمن ، واما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم

وانما ظهرت هذه الاحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها فحيث قوي الايمان والتوحيد ونور الفرقان والايمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الاحوال الشيطانية وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الاحوال الشيطانية. والشخص الواحد الذي يجتمع فيه هذا وهذا الذي تكون فيه مادة تمده للايمان ومادة تمده للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال والمشركون الذين لم يدخلوا في الاسلام مثل البخشية والطونيه والبدني ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون للكفار من الترك والهند والخطا وغيرهم تكون الاحوال الشيطانية فيهم أكثر ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بأمور غائبة ويبقى الدف الذي يغني لهم به يمشي في الهواء

ويضرب رأس أحدهم اذا خرج عن طريقهم ولا يرون احداً يضرب له، ويطوف الاناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله ويكون احدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاما يكفيهم ويأتيهم بألوان مختلفة وذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القريبة منه أومن غيرها تسرقه وتأتي به وهذه الامور كثيرة عند من يكون مشركا أو ناقص الايمان من الترك وغيرهم (١) وعند التتار من هذا أنواع كثيرة

واما الداخلون في الاسلام اذ لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم فلهم من الاحوال الشيطانية نصيب بحسب مافيهم مما يرضي الشيطان ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير ان يحرم اذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفه ولا يطوف طواف الافاضة ويظن انه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الاولياء ولا يعلم ان هذا من تلاعب الشيطان به فان مثل هذا الحج ليس مشروعا ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين ومن ظن ان هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل، ولهذا لم يكن أحد من الانبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا فانهم اجل قدراً من ذلك، وقد جرت هذه القضية لبعض من حمل هو وطائفة معه من الاسكندرية الى عرفة فرأى ملائكة تنزل وتكتب اسماء الحجاج فقال كتبتموني قالوا انت لم تحج كما حج الناس انت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج وكان بعض

---

(١) كان أكثر الترك الذين دخلوا في الاسلام لايزالون الى عهد المؤلف جاهلين لم يتعلموا من الدين ولا من غيره شيئا

الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواء فقال لهم هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لانكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله ،

ودين الاسلام مبني على اصلين على ان يعبد الله وحده لا يشرك به شيء وعلى ان يُعبد بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذان هما حقيقة قولنا اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله فالاله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيما وخوفا ورجاء واجلالا واكراما والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ولا يدعى الا الله ولا يخاف الا الله ولا يطاع الا الله

والرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله تعالى امره ونهيه وتحليله وتحريمه فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه والرسول صلى الله عليه وسلم واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده وتحليله وتحريمه وسائر ما بلغه من كلامه واما في اجابة الدعاء وكشف البلاء والهداية والاغناء فالله تعالى هو الذي يسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم وهو سبحانه قادر على انزال النعم وازالة الضر والسقم من غير احتياج منه الى ان يعرفه أحد احوال عباده أو يعينه على قضاء حوائجهم والاسباب التي بها يحصل ذلك هو خالقها وميسرها فهو مسبب الاسباب وهو الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد (يسأله من في السموات والارض كلَّ يوم هو في شأن) فأهل السموات يسألونه واهل الارض يسألونه وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا ولا يغلطه اختلاف اصواتهم ولغاتهم بل يسمع ضجيج الاصوات باختلاف اللغات على تفنين الحاجات ولا يبرمه إلحاح الملحين بل يحب الالحاح في الدعاء ، وقد كان

الصحابة رضوان الله عليهم اذا سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحكام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باجابتهم كما قال تعالى (يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج * ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو * يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال كبير) الى غير ذلك من مسائلهم فلما سألوه عنه سبحانه وتعالى قال (واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعاني) فلم يقل سبحانه فقل بل قال تعالى فاني قريب اجيب دعوة الداعي فهو قريب من عباده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث لما كانوا يرفعون اصواتهم بالذكر والدعاء فقال «ايها الناس أربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون اصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا ان الذي تدعونه اقرب الى احدكم من عنق راحلته» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «اذا قام احدكم الى صلاته فلا يبصقن قبل وجهه فان الله قبل وجهه ولا عن يمينه فان عن يمينه ملكا ولكن عن يساره وتحت قدمه» وهذا الحديث في الصحيح من غير وجه

وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وهو سبحانه غني عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر الى شيء من مخلوقاته بل هو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش،

وقد جعل تعالى العالم طبقات ولم يجعل اعلاه مفتقرا الى اسفله فالسماء لا تفتقر الى الهواء والهواء لا يفتقر الى الارض فالعلي الاعلى رب السموات والارض وما بينهما الذي وصف نفسه بقوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر الى شيء بحمل

أوغير محل بل هو الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد الذي كل ماسواه مفتقر اليه وهو مستغن عن كل ماسواه

وهذه الامور مبسوطة في غير هذا الموضع قد بين فيه التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولا وعملا فالتوحيد القولي مثل سورة الاخلاص (قل هو الله أحد) والتوحيد العملي (قل يا أيها الكافرون) ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك وقد كان أيضا يقرأ في ركعتي الفجر وركعتي الطواف (قولوا آمنا بالله وما أُنزل الينا) الآية وفي الركعة الثانية بقوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) فان هاتين الآيتين فيهما دين الاسلام وفيهما الايمان القولي والعملي فقوله تعالى (آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط) الى آخرها يتضمن الايمان القولي والاسلام، وقوله (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) الآية الى آخرها يتضمن الاسلام والايمان العملي فاعظم نعمة أنعمها الله على عباده الاسلام والايمان وهما في هاتين الآيتين والله سبحانه وتعالى اعلم ،

فهذا آخر السؤال والجواب الذي أحببت إيراده هنا بألفاظه لما اشتمل عليه من المقاصد المهمة والقواعد النافعة في هذا الباب مع الاختصار فان التوحيد هو سر القرآن وكتب الايمان وتنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الامور وأنفعها للعباد في مصالح المعاش والمعاد والله أعلم

(تم الكتاب)

﴿ فهرس كتاب التوسل والوسيلة ﴾

﴿ يقول محمد رشيد رضا صاحب المنار ﴾

قد طبع هذا الكتاب النفيس في مطبعتنا عن نسخة كثيرة الغلط والتحريف ولم يوجد سواها للمقابلة فاجتهدت في تصحيح أصلها بقدر الامكان فما عرفت أصله الذي غلط فيه الناسخ أو حرفه صححته وما لم أعرف أصله تركته وقد أشرت الى بعضه بعلامة الاستفهام (؟) ولكن لا يكاد يوجد فيه غلط يخل بالمعنى المراد. ومما تركته على حاله بعض الاحاديث الواردة فيه بألفاظ غير التي أحفظها لاحتمال ان يكون ما في الكتاب رواية أخرى والمصنف رحمه الله تعالى هو الحافظ المحيط بكتب الحديث. وقد يوجد فيه أغلاط مطبعية لا تخفى على القارئ

أثمان مطبوعات المنار مع اجرة البريد مضمونة

م	ق	
٢٠	٠١٢	تفسير القرن الحكيم الجزء الثالث ورق متوسط
٢٠	٠١٧	» » » » جيد
٢٠	٠١٤	» » الجزء الثاني » متوسط
٢٠	٠١٩	» » » » جيد
	٠٠٤	» الفاتحة ومشكلات القرآن
	٠٢٤	شرح عقيدة السفاريني جزء ٢
٢٠	٠١٧	أسرار البلاغة - ـــسط
٢٠	٠٢٢	»
٢٠	٠٢٢	دلائل الاعجاز
٢٠	٠٠٦	محاورات المصلح والمقلد
٢٠	٠٠٤	شبهات النصارى وحجج الاسلام
٢٠	٠٠٤	الاسلام في نظر العقل الصحيح
	٠٢٣	تاريخ الاستاذ الامام (جزء المنشآت) ورق متوسط
	٠٢٨	» » ورق جيد
٢٠	٠١٢	» (جزء التأبين والمراثي) ورق متوسط
٢٠	٠١٧	» » ورق جيد
	٠٠٠	» (الجزآن مما تنقص قيمتها ٥ قروش)

(تنبيه) هذه الاثمان لنسخ غير مجلدة ومن طلب شيئاً من هذه الكتب مجلدة فعليه أن يزيد أجرة التجليد خمسة قروش لكل جزء ما عدا الكتب الصغيرة وهي ما يقل ثمنه عن عشرة قروش

مجلدات المنار

ثمن الطبعة الجديدة من المجلد الاول خمسون قرشا الى ان يتم طبعه بعد شهرين تقريبا فيكون ستون قرشا . ثمن المجلد الثاني مئة قرش اميرية وثمن الثالث سبعون قرشا وثمن كل مجلد من سائر المجلدات ستون قرشا . وهذا ماعدا أجرة التجليد والبريد

﴿ رسالة التوحيد للاستاذ الامام ﴾

طبعناها طبعة ثانية فيها زيادة بأكثر من سبعين موضعا . وحذف وتنقيح بقلم المولف . وثمنها خمسة قروش ومن الورق الجيد ستة قروش في مصر وفرنك ونصف في الخارج

كتاب

التوسل والوسيلة

﴿ تأليف ﴾

« شيخ الاسلام الامام تقي الدين احمد بن تيمية »

رضي الله عنه وارضاه

﴿ استخرج من كتاب الكواكب الدراري ﴾

لابن عروة الدمشقي الذي أودع فيه كثير من مصنفات شيخ الاسلام

وهو فيه بعنوان : (قاعدة جليله . في التوسل والوسيلة)

طبع بنفقة الشركة الخيرية لطبع الكتب العالية الاسلامية بجده ﴾

عن نسخة خطية محرفة صحح أصلها بقدر الامكان وعلق عليه بعض الهوامش

﴿ السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار ﴾

(الطبعة الأولى)

بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة

التربية الاستقلالية
(أو)
اميل القرن التاسع عشر

قد تم طبع هذا الكتاب الجليل بالعربية ، في الوقت الذي اشتدت اليه حاجة المصريين وجميع الشعوب العثمانية ، ليتعلموا أمثل الطرق للتربية والتعليم اللذين تكون بهما الامة مستقلة بالطبع ، الذي من لوازمه الاستقلال بالحكم ، وثمن النسخة (غير مجلدة) من ورق كورق المنار ١٦ قرشا صحيحا ومن ورق اجود منه ٢٠ قرشا واجرة البريد مضمو ٢٥ مليما . وثمن النسخة في البلاد العثمانية ريال مجيدي واجرة البريد بع مجيدي . وهو يطلب من مكتبة المنار بطرابلس الشام ومن المكتبة الاهلية في بيروت

﴿ إنجيل برنابا ﴾

هذا الانجيل هو رواية برنابا أحد الحواريين وقد سماه الانجيل الصحيح ويمتاز على الاناجيل المتداولة بتأييد التوحيد وإنكار التثليث والصلب و بالبشارة الصريحة بنبي ... عليه وسلم وقد كان مخفيا في مكتبة البابا وظهر في هذا العصر وتر... و بالعربية وثمن النسخة العربية منه غير مجلدة ١٥ قرشا مصريا وأ... ...سان وثمنه في خارج مصر أربعة فرنكات واجرة البريد نصف فرنك ثمن النسخة المجلدة تجليدا افرنجيا خمسة قروش مصرية او فرنك ونصف من (مكتبة المنار بمصر)

﴿ كتاب التوسل والوسيلة ﴾

...خة منه سبعة قروش صاغ عدا اجرة البريد